فريق
متميزون
E-BOOK

تهويد المعرفة

ممدوح عدوان

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
الطبعة الثالثة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

تهويد المعرفة

الكاتب: ممدوح عدوان

عن الكتاب..

نحن لم نخسر الأرض والوطن والبيوت والمزارع فقط , بل خسرنا التاريخ ومنابع المعرفة أيضاً.

وهذا يكشف لنا عن الإتساع الحقيقي لميدان الصراع , أن الصراع قائم وفي غيابنا , في كثير من الاحيان في العالم كله , في الجامعات والدراسات والتعليم والموسوعات والتكوين وعقل هذا العالم .وليس في فلسطين وجوارها والمخيمات فقط , وأكتشاف كهذا يجب أن يدفعنا الى التعويض عن غيابنا عن ميادين كثيرة في هذه المعركة المصيرية.

.

.

" يحوي اكبر قدر من المعلومات، لكل مهتم بالصراع العربي الإسرائيلي، في اقل قدر من الصفحات، محافظاً على أسلوبه السلس ونكهته المألوفة."البيان

.

.

"تهويد المعرفة ، هو ببساطة مانفستو تحريضي وتحذيري في آن ، لكونه يحث قارئه على تلمس تلك الخطورة التي تعشش بين ثنايا التاريخ اليهودي الملفق ، ومجابهتها." الدستور

.

.

"رغم عدد صفحاته التي لا تتجاوز المئة، سيدهشك كم المعلومات التي ستخرج بها من هذا الكتاب، وستدرك عمق الفجوة بين ما يفعله الصهاينة لأجل فكرتهم وما يفعله العرب من أجل حقهم."

ممدوح عدوان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تهويد المعرفة..

بعد قراءتك لكتاب كيت وايتلام عن تلفيق تاريخ إسرءيل التوراتية([1]) ستعرف لماذا وصف إدوارد سعيد مؤلفه بالشجاعة. فالمؤلف لا يناقش فقط بل يقاتل بالحجة. وهو يقاتل اليهود الذين ستعرف أنهم يتحكمون بعقل العالم. وهو يقاتلهم ضمن ميدان اختصاصي دقيق: تاريخ فلسطين القديم وبأسلحتهم الأكاديمية ذاتها.

كانوا قد قرروا، من خلال ركام عالٍ من الدراسات الأكاديمية، أنه لم يكن هناك تاريخ في فلسطين إلا التاريخ اليهودي. وهذا لم يكن بحثاً في التاريخ أو بحثاً عن الحقيقة، بل كان جزءاً من المشروع الصهيوني الذي يفعل فعله في العقل الأوروبي، مثلما يفعل اللوبي الصهيوني فعله في كواليس السياسة العالمية المعاصرة. ومثلما استعمروا فلسطين فإنهم يستعمرون العقل والبحث العلمي. ومثلما أراد الصهاينة المعاصرون تجاهل وجود شعب فلسطيني في فلسطين - على أساس أن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض- كذلك فقد أقاموا توازياً تاريخياً يجعل من فلسطين في التاريخ أرضاً خالية من الشعب والحضارة، بحيث لا وجود لأي تاريخ في تلك الأرض سوى التاريخ اليهودي.

وقد قُدمت الدراسات ضمن المؤسسات الأكاديمية التي تضغط بثقلها العلمي، وبحيث تحول الاجتهاد إلى رأي عام ثم إلى بدهية مسلّم بها.

ووايتلام يتصدى لهذا كله بعلمانية وصدق، وحماس لا يخرجه عن القدرة على الإقناع والمحاججة.

ولكن.. هل كان لليهود ذلك النفوذ على المؤسسات الأكاديمية والبحث العلمي؟ وكيف حققوا ذلك؟

ليست المسألة مجرد مسألة لوبي صهيوني أو يهودي، نشيط وفاعل ومؤثر في هذا البلد أو تلك المؤسسة. وليست مجرد ضغوط بالمال للسيطرة على الإعلام، أو للسيطرة على قرارات الدول. بل هي مسألة العوامل التي ساعدت هذا اللوبي على الوجود، وسهلت له عمله.

سنتبين أن هذه العوامل المساعدة على ترعرع النفوذ اليهودي في العقلية الأوروبية كانت موجودة قبل السياسة والاقتصاد. لقد كان اليهود متواجدين ومؤثرين قبل وجود مشروعهم الصهيوني. وبحيث صار هناك صهاينة غير يهود، ومتهودون بفعل الثقافة والتحرر والحس الإنساني والحمية الدينية.

خارج السياسة والاقتصاد كانوا موجودين في الثقافة والدين الأوروبي، الذي هو الدين المسيحي حتماً.

وفي الوقت الذي كان المشروع الصهيوني يتبلور حركة سياسية ثم استعمارية ثم استيطانية، كان هناك مشروع يهودي، صهيوني، ومتصهين غير يهودي

بالضرورة، يجتاح العقل الأوروبي الذي يستعمر العالم مادياً وثقافياً وفكرياً.

وحين سيطروا على العقل الأوروبي الغربي سيطروا على عقل العالم.

فعقل العالم، سواء اعترفنا أم لم نعترف، قد صار عقلاً غربياً. الغرب هو المهيمن على مقدرات العالم وعلى ثرواته وأفكاره. وهو الذي يرسم مصيره. ويطلق عليه الأسماء والتوصيفات، ويرسم لدوله الحدود، ويقرر له القيم الثقافية والفكرية والسياسية والعلمية. واليهود ركزوا جهودهم على مركز القوة هذا في العالم. وبتتبع ولاءاتهم المتذبذبة بين هذه الدولة وتلك من دول المركز الأوروبي، ظلوا يدورون في فلك الغرب الذي يحكم العالم. فعرفوا كيف يتحكمون بالعقل لكي يتحكموا بالقرار أو يؤثروا فيه.

وربما كان غيرنا من الشعوب لا يحس بسيطرتهم أو لا يتحسس منها. ولذلك أيضاً فالآخرون يتقبلون طروحات اليهود المغلفة بالعلمية والأكاديمية حيناً، والدينية والقدسية أحياناً أخرى. ولعلنا، نحن أيضاً، ما كنا لنحس بذلك لولا صراعنا معهم خلال القرن الماضي، وانكفاؤنا داخل هذا الصراع غير المتكافئ.

صحيح أنه كان هناك قلة من اليهود لم يكونوا صهيونيين. ولكن صحيح أيضاً أن اليهود، فكرياً وثقافياً وسياسياً، تحولوا إلى جراد. جراد سريع التفريخ، شره للالتهام. فالتهم الجراد اليهودي عقل الغرب، وتغلغل في مصادر تغذية هذا العقل من دين وثقافة، في الوقت الذي كان فيه يسعى إلى التهام أراضٍ وثقافاتٍ وحضاراتٍ وتواريخَ وشعوباً في العالم. وكنا نحن الضحية الأولى والأساس للشره الصهيوني.

وقد سبق لي أن قرأت كتاباً عربياً، «قس ونبي، بحث في نشأة الإسلام»، لأبي موسى الحريري، صادراً منذ أكثر من ربع قرن. وكان لا بد أن أتذكر ذلك الكتاب، وأنا أترجم كتاب وايتلام.

يقول مؤلف «قس ونبي» إن محمداً لم يكن نبياً. بل هو مردد لتعاليم ورقة بن نوفل، قس مكة. وتعاليم ورقة التي لقنها محمداً، من وراء الستار على أنها الوحي، هي شذرات من كتاب كان ورقة يترجمه. والكتاب هو «الإنجيل بحسب العبرانيين».

ويقول المؤلف، بأكثر من صيغة، إن العرب كانوا في حاجة إلى كتاب بلغتهم. والمعنى المقصود هو "نسخة عن هذا الكتاب بلغتهم"، لأن "كل أمة تدعو إلى كتابها" و"كل قرية لها كتاب". والكتاب دائماً، وللشعوب كلها، هو "الإنجيل بحسب العبرانيين". وكل ما لدى تلك الشعوب من كتب أخرى لا معنى لها، إن لم تكن نسخاً مترجمة من ذلك الكتاب إلى لغاتها.

ولما كان العرب بلا كتاب، فقد يسّر ورقة بن نوفل لمحمد أن يحل عقدة النقص لدى العرب، فجاءهم بنسخة من "الكتاب" بلغتهم.

"الإنجيل بحسب العبرانيين"!

منذ متى يتبنى الدين القديم (اليهودي) ديناً لاحقاً به (المسيحية)؟ ولماذا تكون "النصرانية"، التي هي الاسم الحقيقي للإسلام حسب قوله، هي "الطائفة التي آمنت من بني إسرءيل"؟ ومتى تمت هذه المصالحة بين الإنجيل والعبرانيين وبني إسرءيل؛ باختصار بين المسيحية واليهودية، التي يفترض أنها مكروهة من المسيحية، وأنها تحمل وزر قتل المسيح؟

لم يكن اليهود قادرين في الماضي على التصدي لهذا الأمر. ولكن حدث تحول ذو أهمية كبيرة عبر التاريخ المعاصر.

حين يكتب الشاعر بايرون "قصائد عبرية" عن حق اليهودي في أن يكون له بيت، شأنه شأن الطيور والحيوانات، ويوجه نابليون نداء إلى يهود العالم بأن بعثهم قد أزف بمجيئه، وقد جاء وقت خلاصهم لكي يعودوا إلى أرضهم التي وعدهم الرب بها، ويوجه اللورد باترسون رسالة إلى السلطة العثمانية (1840) يبين فيها مخاطر حملة محمد علي باشا على بلاد الشام. ويقول: "إن تشجيع اليهود للعودة إلى فلسطين ووجودهم الدائم هناك يقطعان المخططات الشريرة لمحمد علي وخلفائه"، ويقول لامارتين أمام مجلس النواب الفرنسي: "بريطانيا تريد جمهورية يهودية، وفرنسا يجب أن تصر على مملكة مسيحية، عاصمتها القدس". فهذا يعني أن المسألة أكبر بكثير من الاكتفاء بنظرية المؤامرة والضغط الاقتصادي لتفسيرها.

هناك تيار فاعل ومؤثر جعل هذا التماهي بين المسيحية الأوروبية واليهودية ممكناً.

لقد سعى اليهود ببراعة للتغلب على الكراهية المترسبة عن دور أجدادهم في قتل المسيح. وقد نجحوا أخيراً في استصدار "فتوى" بتبرئتهم من دم المسيح من البابا نفسه. وصار من يذكر هذا الأمر يصنف فوراً على أنه معاد للسامية.

ثم بدأت الحملة المضادة لتتوصل إلى أن المسيح نفسه يهودي.

ولكن هذا لم يتم بسهولة. هناك تراكم من عمليات سرقة المسيح من أصله ونبوته لإحالته إلى اليهودية. وقد تم ذلك في ميادين متعددة سنتوسع قليلاً في بعض منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقول الدكتور رمسيس عوض في كتابه «صورة اليهودي في الأدب الإنكليزي» إن كتّاب المسرح الإنكليزي البارزين في العصر الإليزابيثي كلهم أشاروا في إنتاجهم الأدبي إلى اليهود.. منذ ظهور «تاجر البندقية» حتى وقت إغلاق المسارح.

«.. وفي غضون الخمسين عاماً التي انقضت منذ أن ألف شكسبير "تاجر البندقية" حتى إغلاق المسارح الإنكليزية 1642 شاهدت الحركة المسرحية في إنكلترا تدهوراً كبيراً. وتميزت مسرحيات ذاك الزمان بكثرة الإشارات إلى اليهود بشكل لافت للنظر، الأمر الذي يبدو غريباً إذا تذكرنا ضآلة عددهم في إنكلترا آنذاك. ولعله أصبح تقليداً مسرحياً أساسياً أن يشير أي كاتب مسرحي إنكليزي إلى اليهود إذا أراد تثبيت أقدامه كمؤلف مسرحي».

وتشوسر (1340 - 1400) صاحب «حكايات كانتربري»، والتي تعتبر أول نص أدبي إنكليزي مقروء، يورد في «حكاية الراهبة» قصة الطفل المسيحي الذي يترنم بأغنية عن السيدة العذراء ويرددها في الشوارع. ثم يمر في حارة اليهود فيتآمرون عليه ويذبحونه. وكان جزاؤهم التكبيل والجر بالخيول قبل الشنق.

وفي «حكاية الفاخر» و«حكاية القسيس» يحملهم دم المسيح. كما أنه يورد في «حكاية السير توباس» أنهم شعب الله.

ولكن رغم هذا الهجوم عليهم في أكثر من مجال ثقافي وفكري فقد صدر عام 1614 كتاب «السلام الديني» الذي يطالب بالسماح بعودة اليهود إلى إنكلترا، وكانوا قد طردوا منها عام 1290.

وفي 30 مقالة من مقالاته البالغة 118 في «قاموس الفلسفة» كان فولتير يتحدث عن اليهود بامتهان. وهو يسميهم "سادتنا وأعداؤنا.. الذين نحتقرهم.. الشعب الأكثر بغضاء في العالم".

ولعل الدلالة تصبح واضحة في البحث عن أصل كلمة "غيتو". فالغيتو كلمة إيطالية تعني الحي اليهودي. وربما ظهرت الكلمة في القرن السادس عشر. وأول غيتو لليهود كان في البندقية، حيث أقامت حكومتها في عام 1516 سوراً حول بيوت اليهود لعزلهم عن المسيحيين. وفي بداية القرن السابع عشر شاعت الكلمة في اللغات الأوروبية. وفي 1936 استخدمت لوصف سياسة الدولة تجاه اليهود، حين تحظر عليهم العمل في بعض المشاريع الاقتصادية. وفي «رسالة اللاهوت والسياسة» يرى سبينوزا أن قيام الغيتو من صنع اليهود أنفسهم.

فكيف تم هذا الانتقال من اليهودي المرذول (شايلوك مثلاً) في أوروبا إلى اليهودي المتماهي مع العقل المسيحي الأوروبي الآن؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ القرن الثامن عشر بدأت صورة اليهودي الكريه تتراجع من الأدب الغربي وتحل محلها بالتدريج صورة اليهودي الإنساني (الجار والمعين). وبعد يهودي مالطا عند مارلو، وشايلوك عند شكسبير، والأدبيات الكثيرة الأخرى التي تندد باليهود وجشعهم واستغلالهم، بدأ طرح شخصية اليهودي الطيب.

في رواية «هارنغتون» لماريا إدجورث (1767 - 1849) ظهرت الصورة الأولى. فمقابل باراباس (عند مارلو)، الذي يرفض إقراض الدولة لمواجهة الغزو التركي، وشايلوك (عند شكسبير)، الذي يطالب باللحم الآدمي مقابل دَينه، هناك مونتينيرو اليهودي الذي ينقذ هارلنغتون الإنكليزي من أزمته المالية.

لقد قالت تلك الكاتبة في روايتها، بشكل غير مباشر، إن اليهود بشر عاديون، وفيهم أثرياء طيبون يمكن أن يحلوا المشكلات الاقتصادية في بريطانيا وأوروبا. وحتى عند تشوسر تعوّد حاكم المدينة أن يقترض الأموال منهم.

ومن الملاحظ أن هذه الصيغة متكررة. اليهودي معه المال دائماً. وكما يقول مونتسكيو في «رسائل فارسية»: «فلتعلم أنه حيث يوجد المال فهناك اليهودي».

والآخرون يقترضون منه. تارة يرفض (يهودي مالطة)، وتارة يقبل بشروط قاسية على المدين (تاجر البندقية). ولكنه في «ضمان التاجر»، بين القصص التي جمعها بيفرلي بويد في "معجزات العذراء مريم المكتوبة بإنكليزية العصور الوسطى"، هناك اليهودي الذي يقترض ثم ينكر الدَّين.

وحين جاء دزرائيلي (بنيامين 1804 – 1881) جاء معه البطل اليهودي الإيجابي في الكتابة والحياة وعالم المال. يقول: «إن اهتمامي بسعادة شعبي -اليهودي طبعاً- لمن الحدة بحيث يمنعني من أن أكون أعمى للحظة واحدة تجاه العواصف المتلاحقة على أفق المجتمع". ولكنه هو نفسه الذي يدرك أن "التوجه الفطري لدى الشعب اليهودي مضاد لمبدأ المساواة بين البشر. ولديهم صفة مميزة أخرى – هي القدرة على التملك. إن شغفهم هو بالدين والملكية والأرستقراطية الطبيعية».

ثم جاءت روايته «آلوري» (عام 1833)، وموضوعها بوضوح هو النضال من أجل إقامة كيان يهودي في فلسطين، وحتى إعادة بناء هيكل سليمان. فالبطل داود (ديفيد آلروي) متمرد يهودي ضد المسلمين في أذربيجان عام 1160. يقوم داود هذا بقتل أمير مسلم دفاعاً عن شقيقته. ثم يبدأ بتحريض اليهود الآخرين للعودة إلى القدس أو العودة إلى التفكير والحلم بها. ويخاف اليهود من الانتقام منهم بسببه، أو إذا عرف عنهم هذا التوجه الذي يدعو إليه، فيقومون بقتله.

ولكن البطل يفكر بوصفه يهودياً حقيقياً حانقاً على خنوع بني قومه: «يا رب الجنود، دعني أهاجم أو أمت. دعني أهاجم مثل داود أو أقتل مثل شاول.. يا رب. إن عبدك إسرءيل هو الآن رقيق مهان ومذلول». ثم يطرح الحلم بشاعرية: «لقد سقط القرميد، ولكننا سنعيد البناء بالمرمر».

ويجب أن لا نغفل عن أن دزرائيلي قد وصل أخيراً إلى رئاسة الوزارة البريطانية مرتين (1868 و1874). وهو الذي تحمل مسؤولية اقتراض أربعة ملايين جنيه لشراء أسهم الخديوي إسماعيل من قناة السويس.

ثم جاءت جورج إليوت (1819 – 1880) في «الغجرية الإسبانية» لتقول: «إسرءيل بين الأمم بمثابة القلب من الجسد، هكذا يكتب شاعرنا يهوذا». وفي 1876 كتبت: «إننا، نحن الذين نشأنا على المسيحية، مدينون لليهود بشكل خاص.. إنهم -أي المسيحيين- لا يعرفون أن المسيح كان يهودياً».

وبعد ذلك جاءت روايتها «دانييل دينوردا»، التي موضوعها الأساس هو قضية اليهود. وقد وُصفت الرواية بأنها توضح حساسية الكاتبة "تجاه الثقافة اليهودية، ومعرفتها بها". كما تميزت "بحميميتها" تجاه البطلة اليهودية غندولن هارليت. وفيها مقاطع اعتبرت "تحدياً ثقافياً" لعصرها، من خلال استكشافها وطرحها أفكاراً جدية حول العرق والقومية، اعتماداً على النموذج اليهودي.

وهذا ليس أمراً عابراً. فجورج إليوت هو الاسم المستعار لأهم شخصية نسائية في تاريخ الأدب الإنكليزي في ذلك القرن، وربما في القرون التالية. كان اسمها الحقيقي ماري آن، أو ماريان إيفانز. وكانت شخصية متحررة صاعقة في ذلك الحين. وليس الأمر متوقفاً على تحررها وتبنيها لاسم رجل لاقتحام عالم الأدب والثقافة. بل إنها كانت شخصية ثقافية عالية الفاعلية. فإضافة إلى كتاباتها الروائية المتميزة قامت بترجمة «جوهر المسيحية» للودفيغ فيورباخ، كما ترجمت «الأخلاق» لسبينوزا، وقالت بأولوية العلم على الخرافة والوهم. وكانت مناضلة من أجل تحسين التمثيل الشعبي في البرلمان.

ما الذي يضع هذه المرأة الرائدة في خدمة القضية اليهودية، وبحيث يصبح "يهوذا شاعرنا"؟

الجواب هو أن قضية اليهود كانت قد صارت جزءاً من قضايا التحرر في الفكر الغربي. وفي الوقت ذاته كان اليهود يقدمون وجهاً ثقافياً ودينياً في خدمة المجتمع الغربي. فصارت العودة إلى العبرية تحمل معنى دينياً يتضمن العودة إلى الجذور المسيحية التي أوحيَ أنها كانت يهودية، أو مكتوبة بالعبرية على الأقل. فصدرت أول طبعة عبرية للكتاب المقدس في إيطاليا عام 1488، ثم طبعة التلمود عام 1508 في البندقية. وبين 1492 و1755 بدأت تصدر ترجمات بالعبرية للاهوتيين وفلاسفة ومؤرخين وشعراء أوروبيين غير يهود.

وحتى هيغل في «فلسفة التاريخ» ينقل صورة الشعوب الشرقية كما تنعكس في مرايا النص الديني العبري. فتبدو ديانات المنطقة "عبادات وثنية وحسية وطبيعية فاقدة لكل ما هو روحي". ليستنتج أن "الحواسية أي التعامل مع العالم بالحواس وحدها ودون عقل بنائي أو تحليلي، والقسوة هما صفتان شرقيتان". ويفسر قسوة الشرقي بوعيه الذي تحده الحواس. "ولأن حياة الشرقي هي الحياة الحسية وحسب، ولأن الحسي هو ذلك الشكل من الوعي الذي لا يرتقي إلى مرتبة المفاهيم العامة، ولأن الطبيعة نفسها بالنسبة إليه هي المقدس الأعلى، فإن الإنسان يغدو بلا قيمة، أو أنه ذو قيمة هي الأكثر تفاهة".

ويخلّص هيغل الديانة العبرية من المؤثرات الثقافية الشرقية، رغم أنها ديانة قامت في الشرق، ويلحقها بمسيحية غربية، ويقتلعها من موروثها الثقافي وجغرافيتها الصحراوية ونموذج حياتها الرعوية.. ونزوعها إلى العنف الدموي.. ليعلن أن اليهودية هي بداية الغرب الروحي، أو هي بداية الروح الغربي، الذي كان العبريون أول من حرره من أردية طبيعية وحسية كانت تغطيه في العالم الشرقي الواحد. فالإله العبري "يخلق الطبيعة والبشر، لكنه لا يتماهى مع الطرفين". إنه يتعالى عليهما ويصبح "فكرة مجردة" و"نوراً نقياً" يتنزّل في يهوه.

وفي القرن الثامن عشر بدأت حركة "هاسكالا أي التنوير" اليهودية، والمواكبة لحركة "التنوير" في أوروبا وأمريكا في القرن ذاته، (والتي تعود بجذورها إلى القرن السابق). لقد أطلق الفيلسوف مندلسون هذه التسمية (هاسكالا) على الحركة. وكانت الدعوة موجهة إلى اليهود أنفسهم للخروج من عقلية الغيتو، وتبني ثقافات

البلدان التي يعيشون فيها، وهجر اليديش (اللغة اليهودية الأوروبية) والعودة إلى التمسك باللغة العبرية، إضافة إلى استخدام اللغات الأوروبية في البلدان التي يعيشون فيها، والسعي لتحقيق المساواة المدنية. وكان أهم ما في هذه الحركة أنها أخرجت نفسها من الصيغة الدينية، ونادت برابطة دنيوية بين اليهود، و"حس قومي" بديل عن الرابطة الدينية. وبهذا بُعث الاهتمام باللغة العبرية في أمور خارج الدين. فظهرت أول جريدة بالعبرية باسم "ها يوم" (الفجر) عام 1886، ودوريات أدبية مثل "ها شاهار" عام 1868. وكان أول شاعر (دنيوي) يكتب بالعبرية هو يهوذا ليب غوردون من ليتوانيا.

وقد اصطدم التنويريون الأوروبيون بالكنيسة فقادهم هذا إلى تحديها في أمور عديدة كان أحدها الموقف من اليهود. إذ أراد التنويريون تحقيق العدالة التي يجب أن تعني حسن التعامل مع اليهود. وكان من الطبيعي أن يتفهم التنويريون الأوروبيون السعي اليهودي للمساواة، الذي قطف أول ثماره مع انتصار الثورة الفرنسية. ولكن الإنجاز الحقيقي للتنويريين من هذا الجانب (تحقير كل ما هو غير يهودي أو مسيحي) كان في "الموسوعة" الفرنسية التي سنأتي على ذكرها.

وقبل ذلك، في القرن السابع عشر، كانت قد ولدت الحركة البيوريتانية. وهي حركة داخل كنيسة إنكلترا في أواخر القرن السادس عشر. وكانت حركةً لإصلاح الكنيسة، ومحاولة للتوفيق بين الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانت الإصلاحيين الرافضين. فاصطدمت بسلطة الكنيسة. ثم اصطدمت بالملك جيمس الأول. وطرحت مسألة السلطة المدنية. فتحولت بذلك إلى حركة ذات ظل سياسي، مما أدى إلى محاولة قمعها. وأدى هذا في النهاية إلى هجرة مكثفة من البيوريتان الإنكليز إلى أمريكا. وهم الذين أسسوا "نيو إنغلاند".

وهناك، ومع الشره الاستعماري الاستيطاني، والشره إلى التوسع والبحث عن الثروات في الدنيا الجديدة، ونظرة المستعمرين إلى السكان الأصليين على أنهم نوع من الوحوش (الحسّيّين) الذين لا يعبدون الإله ذاته، ويمارسون طقوساً غريبة، تبلورت لديهم فكرة التميز عنهم والشعور بأنهم شعب الله المختار. فالتقوا مع التفكير اليهودي.

وكانت المصطلحات والتعابير التوراتية قد دخلت منذ زمن طويل إلى لغة الكنيسة. ففي القرن الرابع عشر استخدمت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تعبير "الأسر البابلي" لوصف الإقامة في أفنيون بين 1309 و1377. وهي استعارة لـ "الأسر البابلي" الذي حدث لليهود، في القرن السادس قبل الميلاد، على يد نبوخذنصر، الذي رحّل اليهود إلى بابل. ولم يتوقف استخدام "بابل" بهذه المعاني، منذ دزرائيلي اليهودي في القرن التاسع عشر، (والذي كان يعمل في الأدب والسياسة لكي يفرض نفسه على المجتمع الإنكليزي الذي يرفضه، فيقول: "لن تتحول لندن إلى بابل")، حتى باترسون في كتابيه «الألفية الجديدة» و«النظام العالمي الجديد»، بعد حرب عاصفة الصحراء في مطلع التسعينات من القرن العشرين.

يقول باترسون: «من موقع برج بابل، حيث تبلبلت الألسن وتفرقت كل أمم الأرض، هاهي تعود من جديد وتدخل في حلف عسكري واحد. وهاهي أمم الأرض، كما تقول النبوءات العبرانية، تشكل نظاماً عالمياً جديداً للدفاع عن إسرءيل، والانتقام من بابل بقصفها من السماء؛ لأنها هي التي عذبت شعب الله وأغرقته بالدموع والأحزان».

وهو يمجد الصهيونية لأنها "كالبيوريتانية استجابت للعهد الذي أعطى فيه يهوه لبني إسرءيل الأرضَ المقدسةَ من نهر النيل جنوباً حتى أعالي الفرات". وعلى هذا الأساس كان اجتياح إسرائيل للقدس في حرب حزيران عام1967 "أعظم حدث روحي في تاريخ الكتاب المقدس".

ويؤكد باترسون أن حرب "عاصفة الصحراء" في الخليج العربي كانت المعركة التي حسمت حرب الأربعة عشر قرناً بين الشرق والغرب، بين الإسلام ومنافستيه المسيحية واليهودية. ثم يستشهد بما أوردته مجلة يو إس نيوز (في 27 آب 1990): «إن النزاع القائم في الخليج الفارسي ليس مجرد معركة من أجل الكويت، أو لبسط السيطرة على نفط الشرق الأوسط. إنه الفصل الأخير في حرب قديمة تدور رحاها منذ أربعة عشر قرناً بين الشرق والغرب، بين الإسلام ومنافستيه التوحيديتين: المسيحية واليهودية».

وحتى الدعوة إلى نظام عالمي جديد هي بالنسبة إلى بات روبرتسون، مستشار الرئيس السابق بوش (الأب) أيام "عاصفة الصحراء"، في كتابه الذي يحمل عنوان «النظام العالمي الجديد»، ليست بعيدة عن التوراة. إذ يقول روبرتسون: «إن الكتاب المقدس هو الذي يعد بتلك الحكومة العالمية التي ستقضي على كل أعداء إسرءيل».

يقول إدموند ويلسون: «كانت بيوريتانية نيو إنغلاند نوعاً من اليهودية الجديدة. يهودية موصوفة بتعابير أنكلو ساكسونية».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد استعرت بعض هذه المعلومات الأخيرة من مقالة لمنير العكش في مجلة «جسور» (التي يصدرها في أمريكا). وسأستعير منه مرة أخرى. فلعل في وضع هذه المعلومات بالتجاور ما يساعد على تفسير جانب مما يعجز العقل القاصر عن فهمه من جوانب الأسباب الكامنة وراء التماهي ليس بين السياسة الأمريكية والسياسة الإسرائيلية فحسب، بل وبين الإنسان الأمريكي، أو الغربي، العادي وبين ما تفعله الدولة اليهودية أو يفكر به الناشط الصهيوني. فحين، ونحن في مطالع عام 2002 تستفرد إسرائيل بكل ما لديها من تسلح أمريكي، بالشعب الفلسطيني الأعزل، الذي لم يعد لديه خيار إلا الموت، وتستفحش في القتل والهدم والاعتقالات والتهجير وتجريف الأراضي، أمام شاشات التلفزيون، ولا تتحرك حتى الجمعيات الخيرية أو الإنسانية في أمريكا، ولو بإصدار بيان استنكاري، لا بد لنا من البحث عما يساعدنا في فهم ذلك بأكثر من القول إن المصالح الأمريكية تقتضي من الولايات المتحدة أن تساند إسرائيل. يجب البحث في مكونات الوعي عند الإنسان

الأمريكي، والعربي، العادي وأسس ذلك الوعي التي تجعله ينظر بهذه اللامبالاة إلى مجزرة من هذا النوع.

ولذلك لا بد أن نعود إلى التاريخ، والأمريكي منه تحديداً. وهنا أنقل أيضاً عن العكش:

«كانت قوانين مستعمرات كل من بليموث (1636) وماساشوستس (1647) وكونكتكوت (1650)، كلها مستمدة من شريعة موسى. بينما كانت نصف قوانين نيوهافن مقتبسة حرفياً من أسفار التوراة».

لقد أطلقوا على أمريكا أسماء "أرض الميعاد" و"صهيون" و"إسرائيل الجديدة" و"أرض كنعان". وعبّر جون كوتون، وهو الأب الروحي للبيوريتانية الأميركية، عن هذه الحتمية القدرية في موعظة له قال فيها، قبل أن يتوجه إلى العالم الجديد لتأسيس مستعمرة خليج ماسّاشوستس: «إن الله حين خلقنا ونفخ فينا روح الحياة أعطانا أرض الميعاد "أميركا". وما دُمْنا الآن في أرض جديدة فلا بد من بداية جديدة للحياة نعمل فيها من أجل مجد "بني إسرءيل"، هذا الشعب المختار المتميز».

و قد صاغ جون وينثرب، زعيم البعثة البيوريتانية إلى ماساشوستس، ذلك كله في موعظته التي ألقاها في سفينة الهجرة عام 1630. فشرح لمن فيها قصة "العهد" بين "بني إسرائيل" و"يهوه" في سيناء، وألهب حماسهم حين جدد هذا العهد معهم. واختتم موعظته بما قاله موسى للإسرءيليين: إنكم أنتم أيضاً "مقبلون على الأرض التي حلف الرب لآبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيهم إياها". ثم أخبرهم بأن مصير أميركا كله مكتوب في هذا "العهد"».

وبعد انتصار الثورة الأميركية استهل الحاكم جونتان ترمبل خطبته إلى الشعب الأميركي بتلك الكلمات التي قالها يهوه لإسرءيل في سفر التثنية: «أنت مقدس عند الله. لقد اختارك الله لتكون شعباً فوق كل الشعوب».

كانوا يعتقدون أن هناك تطابقاً بين خروج العبرانيين من مصر لاستعمار فلسطين وقصة خروج البيوريتان من بريطانيا لاستعمار أميركا. حتى أن المؤرخ جون فيسك يرى أن "كومنولث المستعمرات البيوريتانية" و"فيدرالية التوراة" تأسسا على الموجة الأخلاقية اليهودية، وأنك "حيث ترى تاريخاً يصنع في أميركا تجد تاريخاً أمريكياً يهودياً".

ولطالما اعتقدوا بأنهم ما جاؤوا إلى "أرض الميعاد" الأميركية إلا لتأسيس دولة "عبرية" تحكمها شريعة موسى على صورة الدولة التي كان يحلم بها الغزاة الإسرءيليون القدامى. أما أولئك "المتوحشون" الذين يعارضون "دولة إرادة الله"، وما أصبح يعرف لاحقاً بـ "القدر المتجلي"، (وهو مبدأ شوفيني يرى أن التوسع الاستعماري في أمريكا ليس محتوماً فقط، بل هو مقدر من الله)، فإنهم ليسوا إلا مخلوقات الشيطان التي أحلّ الله لشعبه المختار أن يبيدها.

هل يلتقي هذا الكلام مع تصريحات رجال الدين الأخيرة في إسرائيل المعاصرة التي شبهوا فيها العرب بالأفاعي والعقارب، والتي يقولون فيها إن الله قد أخطأ حين خلق

العرب، وأنه لا حل أمام الإسرائيليين إلا بإبادتهم؟

وقبل أن يبدأ فردريك جاكسون تيرنر بتسمية عمليات الإبادة، "تمديناً للمجاهل المتوحشة"، كانت العمليات تستلهم معناها المقدس من مسيرة موسى إلى أرض الميعاد. وليس شعار "الهندي الصالح الوحيد هو الهندي الميت" إلا إعادة صياغة للشعار اليهودي "الجنتيل الصالح هو الجنتيل الميت". فالجنتيل هو كل من ليس يهودياً. إنه من ينتمي إلى "الأغيار". وهو الشعار الذي ستتبناه الحركة الاستعمارية الاستيطانية في كافة أصقاع الأرض. وستبرر إبادة شعوب بأكملها، واسترقاق شعوب بأكملها بعد نقلها على سفن الرقيق كما تنقل البهائم.

ولم يكن تعلم اللغة العبرية -كما يقول منير العكش- بطراً أو زخرفاً أو ترفاً للواعظ والكاهن والسياسي في المستعمرات الجديدة؛ بل كان أساس البنيان الثقافي لكل متعلم متنور. لهذا لم يكن الكتاب الأول الذي طبع في أمريكا هو الإنجيل. ولم يكن كتاباً في الأدب أو النحو الإنكليزي؛ بل كان كتاب «مزامير داود». وكان كتاب «النحو العبري» قد طبع في هارفرد منذ 1735. وعندما تأسست جامعة هارفرد في 1636 كانت العبرية هي اللغة الرسمية فيها.

ويقول أندرس ستيفنسون مفسراً معنى تأسيس الولايات المتحدة ذاتها: (من خلال تأسيس إسرائيل الجديدة "الولايات المتحدة" سيتمتع هذا الشعب المختار بحق مطلق وشامل ومقدس في هذه الأرض، وسيبدأ بإعادة صياغة العالم وتهيئته لحرب نهاية التاريخ. بذلك يتحقق العهد بين يهوه وشعبه... إن كل مصير العالم معلق على هذا العهد! وقد جاء البيوريتان للتأكيد على هذا البعد في قضية اختيار الله لهم وعهده معهم... إن البيوريتان يتحملون مسؤولية كبرى في خروجهم إلى إسرءيل الجديدة. فبهذا الخروج صارت رسالتهم على الأرض صورة حرفية لرسالة بني إسرءيل وصار العهد مع يهوه يشملهم أيضاً).

وليس من الصعب استقراء معنى أن يطبع الإنجيل والتوراة في كتاب واحد، اسمه "الكتاب المقدس The Bible"، بحيث يكون التوراة هو العهد القديم The Old Testament والإنجيل هو العهد الجديد The New Testament. وببساطة قاموسية يمكن أن نعرف أن كلمة Testament لا تعني العهد فقط؛ بل تعني الميثاق والوصية.

فهل نستغرب بعد ذلك أن يحس الأوروبي، المسيحي البروتستانتي، أو البيوريتاني، أنه قريب إلى اليهودي، أكثر من قربه من شعوب العالم الأخرى على الأقل (والتي هي متخلفة وغير مسيحية وغير بيضاء)؟ وأن يتفهم مطالب اليهودي في مناطق أخرى من العالم وأن يساعده في تحقيق هذه المطالب وفي تبرير الأساليب المتبعة لتحقيقها أياً كان نوعها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد دخل في وهم بعض المستوطنين الأوائل في أمريكا، أو أرادوا أن يتوهموا، أنهم لا يستعمرون الأرض ويسلبونها من سكانها الأصليين، بل هم ينشرون دين الله.

وبالتالي فهم ليسوا مستوطنين استعماريين، بل هم مبشرون ذوو قدسية ورسالة تنويرية. وحتى حين تنزع عنهم الصفة الدينية التبشيرية فهم في مهمة تحضيرية. وكانت البعثات التبشيرية الدينية مواكبة لموجات الاستيطان أو هجمات الجيوش. وكثيراً ما كانت سابقة لها وممهدة لعملها. وحين تتعرض البعثة التبشيرية للمضايقات، أو تتكشف حقيقة مهمتها وتتعرض للقتل أحياناً، كان من السهولة بمكان تبرير تجييش الجيوش لإنقاذ رسل الرب أو الانتقام لهم.

وعلى هذه الفكرة ثمة مقولة هندية أمريكية طريفة تقول: "لقد جاءنا الرجل الأبيض، وكانت معنا الأرض ومعه الكتاب المقدس. ثم انتهينا إلى حيث صارت معه الأرض وظل معنا الكتاب المقدس.. والويسكي".

إضافة إلى ذلك فإن السعي الصهيوني إلى محو الشخصية الفلسطينية من التاريخ والحاضر يتلاقى مع تفكير غربي استعماري تعامل مع العالم كله على هذا الأساس. وهذا ينطبق على النظرة الأوروبية إلى شعوب العالم من خلال موقف عرقي واضح.

المسألة، إذاً، ليست مسألة إعلام فقط. هناك تماهٍ في أسس التكوين العقلي والوجداني. وهذا التماهي يُبنى على أسس دينية وعرقية. ولكنه يرتكز أيضاً على مبادئ مستقاة من العلوم الطبيعية والإنسانية والدينية. وثمة عملية تزوير ودمج تقوم على نظريات وأبحاث تظهر لقارئها بمظهر الأكاديمية والعلمانية.

فنظرة الأوروبي (الأبيض) إلى الشعوب الأخرى كلها هي نظرة الإنسان إلى الحشرات. وقد تم التأكيد على هذه المقولة في دراسات كان للكثير منها صفة الأكاديمية. فالحشرات لها نظامها الطبيعي (البدائي) الذي تعيش عليه منذ بدء الخليقة. ولذلك فإنها لم تتطور. لقد تأقلمت مع بيئات ومناخات وظروف متنوعة وغريبة. قد تثير حياتها الفضول أو الاهتمام للدراسة أو الفرجة. ولكن حياتها كلها لا قيمة لها.

من يهتم لقتل الذباب أو البعوض أو النمل؟ لا تخف. سيعود هذا الصنف إلى التفريخ. فهذه الشعوب، مثل الحشرات، كثيرة العدد كثيرة التوالد. لا أهمية لفقدان أعداد كبيرة منها أو قتلهم. وقد يكون ذلك القتل ضرورياً. يجب التخلص من الحشرات المزعجة إذا كان "الإنسان" سيعيش مكانها.

ويجب أن توضع هذه الدراسات في سياق موجة الاستشراق أيضاً. وهذه الأخرى من ضمن تيار علم الأقوام (إتنولوجي) وعلم الإنسان (أنثروبولوجي)، الذي يحدد كيف يجب أن يرى الغربي المتعالي ذلك العالم الدوني، لكي يعرف كيف يتعامل معه ويخضعه. والأنثروبولوجيا، في حقيقتها، هي دراسات الإنسان الغربي على البشر غير الغربيين. وهذه الدراسات تنقسم حسب موضوع الدراسة إلى اختصاصات وتفرعات في علم الأقوام والاستشراق واختصاصات حول الحشرات والديدان والأسماك.

وإذا وقفنا، بعد ذلك، عند الاحتجاج ومبرراته لا نجد ما يساعدنا. إن الغربي يفهم معنى حرمة البيت، مثلاً، ويحتج بكل وسيلة ممكنة على أي اقتحام لحرمة أي بيت. ولكن هذا لا ينطبق على اقتحام وجر حيوان لدراسته أو قتله، ولا ينطبق على نبش مخبأ النمل لدراسة طريقة عيشه، ولا على تخريب خلية نحل لأخذ عسلها، أو خلية دبابير للقضاء عليها.

وكذلك الأمر عند متابعة المصالح الغربية ليس هناك ما يمنع من إبادة البشر والغابات وتلويث المياه أو تجفيفها، وتهديم الأوابد الحضارية.

هنا يشتغل منطق آخر هو منطق الإنسان في التعامل مع المخلوقات الأخرى.

فالأمريكي، والأوروبي الغربي قبله، لا يتعب نفسه في الحديث عن حقوق أو أصول. ليس هناك إلا حقه هو في الوصول إلى أي مكان بفضل القوة، وخدمة للأهداف التي يعلنها هو. وبهذه القوة يهدم التاريخ والحضارة ويبيد البشر ويفرض مشروعيته. وهو يعطي الآن هذه القوة لإسرائيل التي تريد، ويريدها، أن تفعل مثل ما فعل. وهذه لا تكتفي بالقتل والتدمير ومحو الشعب ذاته كما فعلت الولايات المتحدة، بل تريد، زيادة على ذلك، أن تمحو تاريخه، لكي تمد جذورها في قبوره.

هذه الشعوب الأخرى (الأغيار) فائضة على الحياة ولا بأس من، وأحياناً يجب، التخلص منها لإفساح المجال أمام نخبة بني البشر. ولذلك فإن ما يمكن أن يصل إلى أسماع الغرب عن أنباء المجازر في العالم "الآخر" لا يمكن أن يُحدِث الأثر الذي نتوقعه. فالذين يقتلون ليسوا بشراً كما هم البشر هناك. إنهم "أنواع"، وليسوا شعوباً. وهم "فصائل" من أنواع قد لا يتم التحرك إلا للحفاظ عليها ولأسباب بيئية، مثلما يتم الحفاظ على بعض أنواع الفيلة أو الأسماك أو السلاحف. ولكن الشعوب لا علاقة لها بالتوازن البيئي. بل إن بعض بني البشر "يجب" أن يزولوا ولو بمجازر مدبرة ومتعمدة.

إن مجازر أو مذابح كهذه جزء من التراث المطلوب، والذي نُفذ قسم كبير منه في تأسيس "إسرائيل" الجديدة، الولايات المتحدة الأمريكية، عند ذبح الهنود الحمر. إنها المواجهة ذاتها بين الشعب المختار و(الأغيار). وهي مواجهة أخذت تسميات مختلفة: "شعب مختار في مواجهة كنعانيين" و"حضارة في مواجهةِ وحشية" و"عرق أبيض في مواجهة عرق ملون".

وفي شرقنا العربي هناك ما هو أكثر من الروح الصليبية التي كانت مشتعلة في أوروبا ولم تنطفئ تماماً من النفوس، وإن كانت قد توارت قليلاً في السياسة المعلنة.

هناك عوامل أخرى تتدخل في الأمر. فمنذ هانيبال والإسكندر المكدوني كان هناك ذلك الاحتكاك العدائي مع الغرب. وقد استمر عبر الفتح العربي للأندلس ثم إخراج العرب منها، ثم الحروب الصليبية، ثم الفتح العثماني حتى الاستعمار الأوروبي.

ومن خلال التوق (المسيحي اليهودي) المشترك إلى فلسطين والقدس كانت العملية أكثر سهولة، لجعل العملية حضارية وتبشيرية في آن، ثم حضارية واستعادة حق ضائع في آن آخر.

فاعتماداً على العداء للعرب والمسلمين في إسبانيا كان من السهل التبشير بالحروب الصليبية. وفي ظل الدولة العثمانية التي اجتاحت أوروبا الجنوبية صار العداء لما هو شرقي المتوسط من شعوب تحصيل حاصل. وفي كثير من الأدبيات الأوروبية صارت كلمة "تركي" تستخدم لتعني العربي أو المسلم عامة.

ولذلك كان من الممكن تهويد العقل المسيحي الأوروبي في التطلع إلى أرض الميعاد، أو إلى مسقط رأس المسيح، ومرتع رسالته.

وبهذا لم يصبح التوراة هو المرجعية الدينية لليهودية والمسيحية فقط، بل صار هو المرجعية الوحيدة للتاريخ المتعلق بالمنطقة. لقد بدأ الترويج إلى فكرة أن معرفة منطقة المسيح تستدعي الرجوع إلى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. ونتج عن ذلك أن فهم تاريخ المنطقة يستدعي الرجوع إلى التوراة (العهد القديم) أيضاً. وهذا يتضمن القبول بتاريخ إسرءيل كما ترويه الدراسات التي تتخذ التوراة مرجعاً لها.

بهذا نتلمس كيفية فرش الأرضية للتماهي اليهودي -المسيحي الأوروبي (والأمريكي طبعاً) وبحيث تصبح المرجعية اليهودية -عبر التوراة- هي المرجعية الوحيدة عن التاريخ.

يقول عفيف فراج في مقاله «المصادر الثقافية الشرقية للديانة العبرية» (الآداب، أيلول 2000): «في 1839 اكتشف البريطاني السير أوستن هنري لايارد مدينة نينوى السومرية واكتشف فيها مكتبة آشور بانيبال (668 – 633 ق.م)، وفيها 30 ألف لوحة فخارية مرقشة باللغة الأكادية. وأهم هذه الألواح اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش الذي يحكي قصة الطوفان التي كتبت في نهايات الألف الثالث ق.م (2100). ويكون أوتنابيشتم بديلاً أقدم لاسم نوح، الذي اختاره الإله أنكي لبناء الفلك وإنقاذ الأجناس».

ويضيف: «وقد فجر الاكتشاف قنبلة في دوائر الدراسات الأكاديمية التوراتية واللاهوتية والاستشراقية. من كان يتصور وجود قصة الطوفان قبل المصدر التوراتي، وبلغة البابليين والآشوريين أعداء شعب الله المختار؟».

فبعد تحديد التوراة مصدراً وحيداً للتاريخ، والزمن الذي يحكيه عن العبرانيين بداية لزمن التاريخ الوحيد للمنطقة تأتي هذه المكتشفات لتلغي المسلمات التي ترسخت عن هذا التاريخ، ولتقول إن هذه المنطقة كانت مسكونة بحضارات أقدم بكثير من الزمن التوراتي. وتقول أيضاً إن المنطقة لم تكن جرداء وقاحلة يسكنها بدو همج، أو غابات يسكنها متوحشون.

والأمر ذاته حدث بعد اكتشافات إيبلا الأثرية التي تعيد تاريخ الإنسان في المنطقة إلى ما قبل المرجعية التوراتية بقرون عديدة. فقد استبسل علماء الأثريات الإسرائيليون وأنصارهم للادعاء بأن هذه المكتشفات تؤكد الرواية التوراتية. ولكن العلماء الآخرين المشاركين في الحفريات والذين فكوا رموز المكتبة الإيبلية الهائلة دحضوا هذه الدعاوى، وأكدوا أن هذه الأسفار كلها لم تأت على ذكر أي شيء متعلق بمملكة داوود أو سليمان.

هذا في الوقت الذي تعجز فيه الحفريات الإسرائيلية، والغربية الموالية والمتماهية معها، عن اكتشاف دليل واحد في فلسطين يساعد على تثبيت الادعاءات الصهيونية فيها، أو يثبت وجود أي من الأوابد التي تدل على قيام "حضارة" عبرانية.. بل إن كيث وايتلام يدقق ليكتشف أن ما كان يسمى مملكة سليمان (والتي يدعي اليهود أنها ممتدة إلى الفرات) لم تكن أكثر من زعامة عشائرية صغيرة، ليست حتى قبلية، في مكان صغير ومحدد من فلسطين. ويذهب بعضهم إلى القول إن ما كان يسيطر عليه سليمان لم يكن أكثر من حصن داخل المدينة (غيتو آخر).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن الصورة لا تكتمل حتى الآن.

لا بد من فهم المنهج العلمي الأكاديمي الذي دس الفهم اليهودي في صلب الثقافة الأكاديمية الغربية.

ولعل قصة الإنسيكلوبيديا (الموسوعة الفرنسية) تحمل مزيجاً من إعادة اختراع العالم وتقديم الصورة المرغوبة عن الآخرين، والملائمة للموقف المسبق عنهم. وهذه المرة كان هؤلاء هم العرب والإسلام بالتحديد.

تقع هذه الموسوعة في سبعة عشر مجلداً. وكانت بإشراف ديدرو وجان لو رون داليمبير، وبمساهمة من فلاسفة بارزين أمثال فولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو. وهي أعظم الإنجازات الفلسفية لعصر التنوير الفرنسي.

كان دو اليمبير من كبار فلاسفة عصر التنوير الفرنسي. وقد كتب إلى فولتير أيام اشتغالهما بالموسوعة: «سيبين الزمنُ الفارقَ بين ما كنا نفكر فيه وما قلناه». ويقصد ما كتبناه في الموسوعة.

أما ما كانوا يفكرون فيه فهو شيء مختلف تماماً عن النار التي أضرموها بوقودهم المعرفي وبأقوالهم ذات المعنيين، الظاهر والمقصود الحقيقي.

لقد كانوا في مجملهم متنورين. ولهم موقف متناقض مع الدين. فهم يرون فيه العائق الأساس في طريق التقدم الأوروبي. غير أن سطوة الكنيسة لم تكن تتيح لهم المجال للتعبير بحرية عن أفكارهم هذه. فكان أن لجأوا، كما يلجأ المثقفون والأدباء عادة، إلى المجاز والتورية والرمز وما إلى ذلك.

وقد نشرت الباحثة الأمريكية الشابة ربيكا جوبين بحثاً طويلاً في مجلة «الدراسات الشرق أوسطية» بعنوان «الإسلام والعرب في نظر الإنسكلوبيدي». سنقدم هنا تلخيصاً للأفكار الواردة فيه:

أراد هؤلاء الفلاسفة أن ينتقدوا المسيح والكنيسة والدين المسيحي والإنجيل؛ ولكنهم بدلاً من ذلك وجهوا انتقاداتهم إلى النبي محمد وإلى الإسلام والقرآن.

وكان فولتير قد نشر مسرحية بعنوان: «محمد نبي التعصب: فاناتيزم» متأثراً، ومعجباً، بالهجوم الذي كان قد شنه بيير بايل على النبي محمد من قبل، فصوره على

أنه الرجل الذي استغل سذاجة الجماهير لكي يستعبدها، ويشبع تطلعه إلى السلطة.. والنساء.

وتقول الكاتبة: «فإذا وضعنا في الحسبان ما هو معروف عن احتقار فولتير للمسيحية، وقوله بضرورة إيجاد الذريعة للتعبير عن أي نقد للدين، توقعنا أن يكون فولتير قد استخدم محمداً بديلاً عن المسيح. وبهذا أفترض أن فولتير كان قادراً على مراوغة الرقابة ومهاجمة الأسس التي تقوم عليها المسيحية».

إنه هجوم على الدين بالالتفاف حول محمد لإيصال فكرة لا يدفعون ثمن الإعلان عنها. فمن ذا الذي سيهتم بالدفاع عن النبي محمد في الغرب؟

وكان هذا النوع من الأدب المجازي، الذي يوجه انتقاداته عن طريق الحديث عن مكان آخر أو أشخاص آخرين، منتشراً في أوروبا. فبعد عصر الاستكشافات الجغرافية توسعت المخيلة الأدبية الأوروبية، وبدأت كتب الرحلات والمغامرات في بلدان غريبة، حقيقة أو متخيلة، تظهر. ومنها «رحلات غليفر» لسويفت، و«كانديد» لفولتير نفسه، و«العاصفة» لشكسبير، و«روبنسون كروزو» لدانييل ديفو، و«بلد العميان» لويلز.

والأمر شبيه بموجة أدبيات الخيال العلمي المعاصرة (وأفلامه) التي اندفعت بعد غزو الفضاء والثورة التكنولوجية.

ولكن هذه الكتابات القائمة على المخيلة كانت تختلف عن كتابات المستشرقين والأنثروبولوجيين والإتنولوجيين التي تدعي أنها تقدم الحقيقة عن الأقوام في المناطق الغريبة أو المجهولة التي يتم "اكتشافها".

هذه كتب مصنفة على أنها أدب. وفي كل كتاب منها ينقل الكاتب بطله إلى بلد خيالي غريب مليء بالعجائب، ثم ينتقل معه في مغامراته في بلد العجائب هذا ضمن قصة مشوقة. ولم يكن القصد في أية حالة من هذه الحالات إطلاق العنان للمخيلة أو تقديم القصة المشوقة فقط، بل كان القصد تقديم مرآة فاحصة يستطيع بواسطتها توجيه النقد إلى المجتمعات الأوروبية نفسها التي ينتمي إليها الكتّاب.

فالكاتب، هنا، يقدم ما يجبر قارئه على مقارنة مجتمعه به. وهو هذه المجتمعات البدائية الغريبة. ففيها نجد أناساً أبرياء طيبين لم يتلوثوا بجشع الإنسان المعاصر، وطمعه وحبه للمادة. وهو يعيش في مجتمعات بسيطة، ليس فيها استغلال أو سعي لاستعباد شعوب أخرى. إنها المجتمعات المناقضة تماماً لحالة المجتمعات الأوروبية. وبذلك يقدم الكاتب انتقاداته القاسية للقيم والعادات والعقائد وأنماط السلوك في بلده.

إن الصورة التي يرى الأوروبي نفسه عليها في هذه المرآة هي صورة غير مريحة. ولكنه لا يستطيع الاحتجاج على الكاتب. فهو مختبئ وراء ستارة أنه يروي قصة خرافية أو يقدم مادة للتسلية. ولكن هذا لا يمنع أن بعض الطبعات المعاصرة من «رحلات غليفر» قد تم حذف فصول منها لها علاقة واضحة بتصوير الاستعمار واستغلال الشعوب.

واختيار فلاسفة عصر التنوير للإسلام والقرآن ومحمد كان يعني اختيار الهدف الذي يصبون من خلاله النقد القاسي على الدين دون أن يواجهوا اعتراضاً لدى القارئ الأوروبي العادي. فالأوروبي مهيأ سلفاً لقبول النقد للإسلام والتعريض به والسخرية منه.

تقول الكاتبة: «إن عصر التنوير الفرنسي يتقدم بمفهومه عن العقل المطلق أمامنا عارياً، ومتجرداً من تظاهره بكونه بحثاً موضوعياً عن الحقيقة، وينكشف على أنه عقل متمركز على هدفه الحقيقي، أو عقل [ذرائعي] يسعى إلى قوته وتمجيد نفسه. وهكذا سأكشف عن بعض النقاط المعتمة من عصر التنوير الفرنسي بالكشف عن كيفية ابتكار الفلاسفة للكثير من قاموسهم الخاص من خطاب مؤسس سابقاً، وتلاعبهم بالمعطيات التاريخية لكي يخترعوا "شرقاً" يتلاءم مع أغراضهم».

هم إذاً أعادوا اختراع الشرق لا بما هو عليه، بل بما يتلاءم مع غرضهم الذي يسعون إليه. وكانوا في ذلك شبيهين بمن يكتبون عن بلدان ومناطق لا وجود لها. مناطق يخترعونها من مخيلاتهم لكي تخدم أغراضهم. فالشرق، بالنسبة للمستشرقين، حسب ما يراه إدوارد سعيد، ليس إلا "خشبة مسرح ملحقة بأوروبا" أي أنه ليس موجوداً بذاته أو لذاته، بل هو موجود فقط وفق علاقته بالغرب، الذي هو معني بالحديث عن نفسه أكثر مما هو معني بالحديث عن الشرق.

أول دريئة أقامها هؤلاء الفلاسفة في موسوعتهم هي عداء الإسلام للعلم وتناقضه مع العقل. وكان الهدف الحقيقي هو القول إن الدين، إجمالاً، والدين المسيحي تحديداً، متناقض مع العلم والعقل. والميدان الذي استطاعوا أن يجولوا فيه بحرية هو موضوع المعجزات. وقد تنطعوا جميعاً لإثبات أن معجزات النبي محمد هي خداع للعامة. ولكنهم أرادوا القول إن معجزات الأنبياء، كلها، مناقضة للعلم والعقل. وبينها طبعاً معجزات السيد المسيح الذي لا يجرؤون على انتقاده أو انتقاد معجزاته مباشرة.

يقرر ديدرو، مثلاً، أن أمية محمد تناغمت فوراً مع الكراهية المتأصلة لدى أتباعه تجاه أشكال المعرفة كلها. ولا حاجة بنا هنا لمجادلة هذه الفكرة وتبيان مقدار اهتمام النبي نفسه بالعلم والتعليم. فالمجال هنا هو مجال تقديم أفكار الموسوعة والتنويريين فيها دون مناقشتها.

تقول الباحثة: «وكانت فكرة المعجزات في الإسلام أرضاً خصبة لنية الفلاسفة في كشف دور الخداع في مسألة الوحي الديني. وعند تصويرهم للمسيحية كان على الموسوعيين أن يخفوا مشاعرهم الحقيقية حول عدم الانسجام بين العلم والمعجزات، وأن الأنبياء طرحوا مسألة المعجزات لخداع السذج من العامة. وهذا ما فعله ديدرو. ولكن الموسوعيين كانوا يستطيعون أن يتحدثوا بصراحة عن موضوع المعجزات في الإسلام. وهنا، وكما كان يفعل البحاثة في العصور الوسطى، كان الموسوعيون يسعون إلى دحض محمد من خلال التدقيق في مصداقية معجزاته. لكي يدْعُوا الإنسان، بشكل غير مباشر، إلى إعادة التفكير في معجزات الأنبياء كلهم.. ومعجزات السيد المسيح بشكل خاص».

وما يكشف نية هؤلاء الفلاسفة الموسوعيين بجلاء هو امتداحهم لبعض الجوانب في الدعوة الإسلامية، وبعض الجوانب في الحضارة العربية، وسط ذلك الهجوم الشنيع على الإسلام، وعلى سذاجة أتباعه العرب وغبائهم وجهلهم بالدرجة الأولى.

ومن هذه الجوانب التي أعجبتهم وكالوا لها المديح توصيف الإسلام للذات الإلهية، وموقفه من الأصنام. ثم، وهو ما يستغربه المرء للوهلة الأولى، موقف الإسلام من الفنون.

فدو جاكور، لكي يتظاهر بالموضوعية ويتمكن من انتقاد المسيحية في الوقت نفسه، يقول إن القرآن ليس كله هراء. فتوصيف القرآن لله، أو توصيف الله لنفسه فيه، يبدو متميزاً ومقبولاً. ثم يستشهد بسورة الإخلاص ليركز على: «لم يلد ولم يولد» من حيث أنها صورة رائعة ومنطقية لله عز وجل. يجب أن لا يكون مولوداً. ويجب أن لا يكون له أبناء. والغرض من هذا، كما تقول الباحثة، هو نسف فكرة ابن الله التي تقول بها المسيحية.

كما يمتدح الموسوعيون موقف الإسلام من الأصنام ودعوته إلى عبادة الإله الواحد. ولكي يوصلوا فكرتهم الحقيقية يصل الأمر بهم حتى إلى امتداح الموقف الإسلامي من التصوير والنحت. والقصد، كما ترى الباحثة، هو انتقاد الانشغال الكنسي بصور المسيح والعذراء والصليب والأيقونات والزخرفات الكنسية التي لا تليق بمكان للعبادة.

ويستطردون بعد هذا المديح إلى ذكر الفتح الإسلامي الذي وصل إلى الاحتكاك بالمسيحية، والتأكيد على أن المسلمين دمروا كافة الصور والتماثيل التي وجدوها في كنائس البلدان التي فتحوها. وكان هذا في رأيهم عملاً مجيداً من قبل الإسلام. يجب أن لا ينشغل المؤمن بأية صورة تكون بديلاً عن تصوره لله الذي لا يُحد في شكل أو هيئة.

كما أن الموسوعيين امتدحوا مسألة أن الزكاة هي ركن من أركان الإسلام الأساس. وبعد شرح هذه "الفضيلة الإسلامية" يشيرون إلى أن المسيحية قد أهملت هذا الأمر الإنساني العظيم. وذلك أن الحضارة المسيحية، كما كان يراها فلاسفة عصر التنوير الفرنسي، وأثناء ذلك العصر بشكل خاص، كانت تتناقض تناقضاً تاماً مع هذه الصورة الإنسانية. فالرحمة غائبة عن القلوب، والتعاون مفقود بين البشر، والسعي إلى تجميع الثروات هو الشغل الشاغل للجميع. بينما يرزح الفقراء تحت أعباء الجوع والفاقة والمرض ولا يهتم بهم أحد.

واشترك ديدرو ومونتسكيو وفولتير في تصوير تلك الحضارة المسيحية على أنها مغلفة بالانحطاط، والتعصب اللاعقلاني. وهي مهتمة بالطقوس السطحية أكثر مما تهتم بالقيم الخالصة. وأكبر دليل على ذلك إهمالها للفقراء.

وتأتي ضربتهم المفاجئة عند تمييزهم بين العرب والإسلام. فمع تأكيدهم على أن الإسلام معاد للعلم ومتناقض مع العقل، شأنه شأن أي دين آخر، كما يريدون أن يقولوا، إلا أن العرب أقاموا حضارة عظيمة وقدموا خدمات جلى للمدنية والعلم

والعالم في عصر الرشيد والمأمون والمعتصم. وهي خدمات يعترفون أن الغرب استفاد منها فائدة هائلة للقيام بنهضته.

ولكن ذلك حدث عند العرب، كما قالوا في الموسوعة، بعد أن نوع العرب مصادر معرفتهم وبعد أن رأوا عدم الاكتفاء بالقرآن والمعرفة الدينية (الإسلامية) عموماً؛ أي عند تركيز اهتمامهم على فلسفة اليونان وعلومهم والفرس وعلومهم والهنود وعلومهم. وهم يعتبرون أن هذا العصر الذهبي الحقيقي قد بدأ عند ابتعاد العرب عن الإسلام، الذي يعني تأكيدهم على الابتعاد عن الدين إجمالاً. أي أنه لا تقدم مع وجود الدين. والدعوة المبطنة هنا موجهة إلى الرأي العام الغربي لدفعه إلى تنويع مصادر معرفته، وعدم الاكتفاء بالمصادر الدينية.

بهذا نستطيع أن نعود من جديد إلى العبارة الواردة في رسالة دو اليمبير إلى فولتير لفهمها: "سيبين الزمن الفارق بين ما كنا نفكر فيه وما قلناه".

فما قالوه هو هجوم عنيف على الإسلام والمسلمين، وتمييز قسري بين العرب والإسلام بهدف نقد الكنيسة والمجتمع الفرنسي والأوروبي عامة.

والتمييز بين العرب والمسلمين بالطريقة الواردة في الموسوعة تمييز قسري يتضمن مغالطات لا تليق بموسوعة معرفية، أو دائرة معارف. فهو قسري مغالط لأن الحكم العباسي الذي يبدون إعجابهم به، وبخدماته للعلم والعقل والمعرفة، لم يبتعد عن الدين أكثر من غيره، ولم يكن حكماً عربياً خالصاً. بل هو، في حقيقة الأمر، قام على إلغاء التفرد العربي بالسلطة. إذ قام الحكم العباسي على أكتاف الفرس، بقيادة أبي مسلم الخراساني في البداية. ثم كان البرامكة حاشية هارون الرشيد الأساس. وهم فرس أيضاً. وكان الصراع بين الأمين والمأمون، بشكل ما، صراعاً بين العنصر العربي والعنصر الفارسي. وقد انتهى بانتصار المأمون، أي العنصر الفارسي، على الأمين، الذي يمثل العنصر العربي. وبعد هذه المرحلة من السيطرة الفارسية برز دور المماليك الأتراك ثم البويهيين وغيرهم.

هي إذاً صورة غير دقيقة، من هذا الجانب على الأقل. ومن الممكن مراجعتها ونقدها.

ولكن المشكلة التي تخلقها هذه الموسوعة هي أن الأسباب الداعية إلى هذا الموقف من الإسلام لم تعد موجودة. فقد صار المفكرون الغربيون قادرين على نقد الكنيسة والدين وإعلان الإلحاد مباشرة وبحرية تامة. إلا أن الموقف الذي فيها من الإسلام والعرب، والصورة التي قدما عليها، ظلا موجودين في عمل موسوعي ومرجعي كبير للأجيال اللاحقة.. حتى الآن. ولم يقم أحد بإعادة النظر في مادة هذه الموسوعة.

وما الذي يدعو باحثين غربيين الآن إلى إعادة النظر في موسوعة مرجعية كهذه؟ ألأنها تقدم صورة غير دقيقة عن الإسلام والعرب؟ فلتكن هذه النظرة. ولتبق. فالعرب والمسلمون من بين الشعوب "الأخرى" التي لا تستحق التعب لتقديم صورة دقيقة عنها. الشعوب الأخرى لا وجود لها إلا كما يتصورها الغربي. فلتبق هنا إذاً.

ولكن يمكن أن نتصور ما الذي كان سيحدث لهذه الموسوعة لو أن الصورة المشوهة كانت عن اليهود. على الأقل ستتهم بمعاداة السامية والعنصرية. وستوضع على الرف لأنها من ترهات الماضي العنصري اللاعلمي. أما والنظرة إلى شعب غير أبيض، وللإسلام تحديداً، فما الضرر؟ ستظل أجيال كثيرة ترجع إلى هذه الموسوعة على أنها من مصادر المعرفة المعتمدة، فترى صورة الإسلام فيها على النحو الذي قدمه هؤلاء التنويريون الفرنسيون ذوو الأسماء الكبيرة في عالم الثقافة والفكر والأدب. وتتقبل هذه الصورة لعدم وجود مرجعية أخرى تناقضها.

وهذا بعض ما يفسر ذهول العقل الغربي، بعد أحداث أيلول (سبتمبر) 2001، حين اكتشف أنه لا يعرف شيئاً عن الإسلام والعرب. واكتشف أيضاً أن الصورة النمطية التي كانت تقدم له لم تعد كافية لتفسير ما يجري. فظهرت خلال أشهر قليلة، وفي معظم الدول الغربية، كتب جديدة عن الإسلام والعرب والشرق، مع إعادة طبع ترجمات القرآن. وكان سؤال الغربي لنفسه هذه المرة: كيف نجهل الإسلام الذي ينتمي إليه مليارات البشر، ونحن أهل العلم والبحث والموضوعية والدراسات الأكاديمية؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما أننا، في النهاية، لسنا نحن الهدف في عملية التغذية المعرفية التي تقدمها الموسوعة. والآراء التي تناقشها لم تكن موجهة إلينا أصلاً. والرأي العام الذي صنعته الدراسات التوراتية والموسوعية وزورته، وضللته، ليس رأينا نحن. بل هو رأي الآخرين. وهي كتب ودراسات موجهة أصلاً إلى الآخرين. وكما يقول إدوارد سعيد في مقاله في الملحق الأدبي للتايمز «الشرق ليس شرقاً»، شباط 1995: «ما من أحد من المستشرقين الذين أكتب عنهم يبدو أنه قد سبق له أن وضع في ذهنه شرقياً ما على أنه قارئ. إن خطاب الاستشراق.. مصمم كلياً لقراء ومستهلكين في الغرب المرْكز».

ويضيف وايتلام معقباً على عبارة سعيد، وهو يركز على الطريقة التي قدم بها تاريخ فلسطين: «وهذا ينطبق على الجمهور المستهدف والفعلي لتدفق الأعمال حول تاريخ إسرءيل.. إنها ليست موجهة إلى جمهور فلسطيني أو غير غربي.. أكثر من ذلك إن الجمهور هو مبدئياً مسيحي ويهودي». وبعد قليل يضيف: «القراء هم أوروبيون وأمريكيون وإسرائيليون».

وتكاد الأبحاث والدراسات في العصر الحديث عن تاريخ اليهود كافة (وقدر كبير من التاريخ غير اليهودي) تكون مقدَّمة من قبل أكاديميين وشارحين يهود، معظمهم، ولدرجات مختلفة، مأخوذون بخرافات تراثهم الخاص بهم. والحقيقة هي أن معظم المادة الهائلة التي تنشر في هذه الأيام عن اليهود إنما هي مكتوبة من قبل يهود وموجهة إلى اليهود وإلى الغرب فقط. ويقول جاكوب نويسنر: «إن الدراسات اليهودية، في جامعات أمريكا الشمالية، لا تعامل وفق المبادئ الأكاديمية، بل تعامل بوصفها حلبة يستكشف فيها اليهود جذورهم. إنها حقائق تعليمية يهودية موجهة إلى اليهود الآخرين». ويقول إسرائيل شاهاك: «وكافة الدراسات الحديثة عن اليهودية،

والتي يقوم بها اليهود بشكل خاص، حتى يومنا هذا تحمل العلامات التي لا تخطئها العين والدالة على أصولها: الخداع والتبرير والمجادلة العدائية، واللامبالاة، وأحياناً العداء المكشوف لأي تقصٍّ عن الحقيقة. فالدراسات اليهودية حول اليهودية حتى يومنا هذا هي دراسات جدلية مع عدو خارجي غير يهودي أكثر مما هي جدل داخلي مع الذات».

ولكن ضغط هذه الموسوعات، في النهاية، لا يقتصر على القارئ الغربي وحده، أو القارئ المحايد في العالم غير المعني مباشرة بالصراع العربي الصهيوني، بل إنه وأمام الشعور بالحاجة العربية، وغير العربية في البلدان الأخرى، إلى نقل الثقافة الغربية يمارس ضغطه حتى على العرب والمسلمين. وبحيث تتم ترجمة هذه الكتب والموسوعات، إضافة إلى الأبحاث الاستشراقية، ثم تبني وجهة النظر التي فيها عنا نحن. أي أننا نحن أيضاً نتعرض إلى تبني رأي عدونا فينا.

ومثال على ذلك، بين أمثلة كثيرة، الموسوعة الإسلامية التي كتبت بمنطق عدائي للإسلام والمسلمين والعرب. فقد قامت دوائر عربية بترجمتها. ولم ينتبه المترجمون والناشرون إلى السم الذي في هذا الدسم الموسوعي إلا بعد أن كانوا قد قطعوا أشواطاً طويلة في الترجمة، وبعد صدور أجزاء منها، وقيام ضجة احتجاجية في أكثر من مكان على ما ورد فيها من حقد وعداء وتشنيع. فهذه الموسوعة تقدم الإسلام على أنه توليفة من مزج اليهودية بالمسيحية التي هي ليست إلا "اليهودية الآرامية". وكان الأمير طوسون باشا هو أول من أمر بترجمتها. وحين وصل المترجمون إلى حرف الطاء اكتشفوا الورطة التي وقعوا فيها. ولكي لا يتلفوا ما أنجزوه قدموا الترجمة إلى الأزهر الذي صدّرها بمقدمة أشار فيها إلى تلك المغالطات عام 1932 في عهد الملك فؤاد الأول. وكان الشيخ علي عبد الرازق أحد المشاركين في الرد والتفنيد. ثم في عام 1995 تنشر الموسوعة كاملة بالتعاون بين دار نشر مصرية وأخرى خليجية. وتثور ضجة في الصحف العربية والمصرية منها بشكل خاص احتجاجاً على نشرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد تمكن اليهود من مواقعهم الأكاديمية، وبعد إشباع الموسوعات بالمعلومات المرتبة لخدمة الهدف اليهودي، بدأت عملية مزدوجة في المراجعات التاريخية. وكان هناك لهذه المراجعات التاريخية ثلاثة أغراض لا يخطئها أي قارئ ممحص.

الأول هو غسل التاريخ اليهودي من كل شائنة. فأي حدث قام اليهود فيه بدور غير محمود تتم إعادة النظر فيه إما لنفي دور اليهود فيه، وإما لتبرير هذا الدور.

والثاني الذي يواكب الأول هو عملية "سرقة العبقريات". فكل عبقرية تأتي في التاريخ يتم اختراع نسب يهودي لها.

والثالث "احتكار المآسي". وقد تم ذلك من خلال إعادة النظر بمآسي الشعوب الأخرى لطمسها أو تبريرها أو إنكارها نهائياً للإبقاء على مأساة اليهود على أنها

المأساة الإنسانية الوحيدة. وهي تشتمل على المأساة اليهودية المعاصرة (الهولوكوست) والمأساة التاريخية (التيه والسبي).

ولنفصّل قليلاً:

إن الأبحاث تُقدم بوصفها إعادة كتابة للتاريخ بغية تصحيحه. ولكن الكاتب اليهودي برنارد لويس يعترف أن "إعادة كتابة التاريخ تتم عادة لتحقيق أهداف سياسية".

كما ينوه مايكل شرمر وألكس غروبمان في «ناكرو الهولوكوست» إلى أن: «التاريخ الزائف هو إعادة كتابة للماضي من أجل أغراض شخصية أو سياسية».

ولكن إمكانية الاحتجاج، حتى الأكاديمي، على نتائج هذه "الأبحاث التاريخية" مصادرة سلفاً. فقد سارت هذه الأبحاث جنباً إلى جنب مع موجة "حارسة" واتهامية تصنف كل محتج عليها أو مشكك في قيمتها على أنه معاد للسامية.

ولنر كيف يتم الالتفاف على إمكانية الاحتجاج أو المناقشة:

في عام 1998 كتب إليوت هوروفيتز في مجلة «الدراسات الاجتماعية اليهودية» عن الطريقة التي تتم بها إعادة صياغة التاريخ اليهودي. وكان موضوعه الأساس هو الغزو الفارسي للقدس عام 614 والمجازر اليهودية التي رافقته لعشرات الآلاف من السكان المسيحيين (تتراوح الأرقام بين 30 و90 ألفاً). فقد كتب القس جورج وليامز (1840م) أن اليهود قد تبعوا الفرس من الجليل لإشباع رغبتهم الثأرية بذبح المؤمنين (المسيحيين) وتدمير كنائسهم وخلال أيام قليلة سقط تسعون ألف مسيحي من الجنسين ومن كافة الأعمار. وظلت هذه المجزرة ماثلة في الأذهان وواردة في كل كتابة تاريخية عن تلك الفترة حتى حدوث "الهولوكوست". فصارت الكتابات منذ ذلك الحين إما أن تتجاهل هذه المجزرة، أو تغفل دور اليهود فيها. وفي إسرائيل، بعد 1967، «صار توجه التأريخ الإسرائيلي، الأكاديمي والعادي، يتجاهل مجزرة عام 614م تجاهلاً تاماً» كما يقول هوروفيتز. وفي تاريخ الشعب اليهودي لبن ساسون، الذي يدرَّس في الجامعة العبرية، «لا توجد كلمة واحدة تتعلق بالقتلى المسيحيين في الكتاب الذي يتعلم منه الآلاف من طلاب الثانوية والجامعة الإسرائيليين عن ماضيهم».

كما نشر جوناثان سكورش (اليهودي) مقالاً عام 2000م أشار فيه إلى رفض المؤرخين اليهود تقصي مساهمة اليهود في تجارة الرقيق الإفريقية إلى أمريكا، أو التعليق عليها. ويلاحظ أن مؤرخاً بارزاً مثل سالو بارون حين يجد نفسه مجبراً على ذكر اليهود بوصفهم تجار رقيق، كما كان يحدث في الوست إنديز البريطانية، فإنه يشعر بالحاجة إلى تقديم المبررات، مع أنه لا يفعل ذلك مع تجار الرقيق الآخرين بل يدينهم.

فمثلاً فيما يدان كورتيس الفاتح الشهير لأمريكا الوسطى للجرائم الشنيعة التي ارتكبها بحق السكان المحليين، فإن الذرائع تقدم لتبرير أفعال زملائه الفاتحين المتحدرين من أصل يهودي أمثال بارتولومي دو لاس كاساس وهرناندو ألونسو. وبعض هذه التبريرات يبعث على الضحك. فالمؤرخ جاكوب رادر ماركوس،

المختص بتاريخ البرازيل، والذي يدين التورط المسيحي في تجارة الرقيق يتعمد ذكر دور اليهود في المنطقة لتثبيت ريادتهم في استيطان القارة الأمريكية. ولكنه يتجنب الحديث عن دورهم في تجارة الرقيق. فيذكر بطريقة موارِبة أن عائلة يهودية ثرية كان لديها 280 عبداً في مزرعتها.

ومن الطبيعي أن الزنوج المستعبدين لم يكونوا يحبون سادتهم ومسترقيهم. ولكن الكاتب يرى المسألة من زاوية أخرى. فيقول إن الحقد على اليهود والتحامل عليهم (ويقصد العداء للسامية) كانا منتشرين في سانت دومينيك حتى بين الزنوج. وبالتالي فالعبيد الذين يكرهون مضطهديهم يصبحون معادين للساميين حين يكون هؤلاء المضطهدون يهوداً.

وفي البحث التاريخي المنحاز لليهود والمزور لتاريخ فلسطين لم يستطع الباحثون تجاهل مجازر ارتكبها اليهود في فترات قوتهم (التي يقررها هؤلاء الباحثون) في حق سكان المنطقة الأصليين. وذلك، ببساطة لأن تلك المجازر مذكورة في التوراة. ولكن تبريرات تلك المذابح موجودة بأكثر من صيغة.

ويورد وايتلام، وهو المتخصص في البحث عن جذور إسرائيل في المنطقة، قول الباحث التاريخي اليهودي و. ف. ألبرايت حول المذابح والإبادة العرقية التي ارتكبها اليهود في فلسطين القديمة بحق الكنعانيين: «ومن موقف الفيلسوف المتجرد يبدو من الضروري غالباً أن يفنى شعب من طينة أنقص ليظل الشعب ذو القدرات الأعلى. لقد كان من حسن الحظ.. أن إسراعليي الغزو كانوا همجاً مزودين بطاقة بدائية وإرادة في البقاء لا تلين، حيث أن إفناء الكنعانيين قد منع الخلط الكامل بين الشعبين».

ثم يكمل تبريره للقارئ الأمريكي على النحو التالي: «.. ونحن، الأمريكيين، ربما كان حقنا أقل من حق معظم الأمم الحديثة الأخرى، وعلى الرغم من إنسانيتنا المتأصلة فينا، في الجلوس للحكم على إسراعيليي القرن الثالث عشر (ق.م)، طالما أننا عن قصد أو لأسباب أخرى، قد أبدنا عشرات الآلاف من الهنود (الحمر) في كل زاوية من زوايا أمتنا العظيمة، وحشرنا البقية في معسكرات اعتقال كبيرة. لكون ذلك مما لا يمكن تجنبه».

ويعقّب وايتلام على هذا الكلام ساخراً أن هذا الباحث (اليهودي) لم يغير من قناعته حتى حين قامت النازية بقتل اليهود استناداً إلى المبدأ ذاته (إفناء شعب من طينة أنقص ليظل الشعب ذو القدرات الأعلى.. لكون ذلك مما لا يمكن تجنبه).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثم ننتقل إلى "سرقة العبقريات". فبعد موسى اليهودي، والمسيح الذي يصرون على يهوديته، يأتي محمد الذي هو من سلالة إبراهيم اليهودي. وحتى بوذا هو تنويعة آسيوية على قصة موسى. والبوذية، مثل المسيحية، أخذت الجانب الوعظي من التوراة.

ولا يهمهم التدقيق كثيراً في التواريخ لمعرفة من سبق من (بوذا أم موسى). هم يطلقون الرأي. وليس عليهم الإثبات. بل إن على الآخرين أن يثبتوا العكس. وهم ينطلقون من مبدأ شبيه بمبدأ التشنيع و"الحكي على الناس". إذ المعروف أنه يكفي أن تقول إن فلانة سيئة السلوك حتى يتداول الناس هذه التهمة. ثم تقضي المسكينة حياتها كلها في السعي لنفي التهمة.

وهذا الأسلوب بسيط. يطلق يهودي ما في موقع علمي أو أكاديمي رأياً مرتجلاً، ولكنه مقصود وذو هدف. فيتلقاه آخر ويردده على أنه رأي علمي منقول عن العالِم. ثم تشتغل الماكينة الإعلامية لتعميم القول ونشره بين الطلاب والمتعلمين غير المتخصصين. فيتحول إلى مسلّمة. وبعدها يركض أصحاب الشأن للنفي وإثبات العكس إذا استطاعوا، أو إذا خطر لهم أن يفعلوا. وكيف لهم أن يلاحقوا المعلومة التي تحولت إلى ركيزة معرفية في ميادين متنوعة؛ دينية وتاريخية وأكاديمية وإعلامية.

ومن هذا القبيل ادعاء اليهود بأنهم هم بناة الأهرامات المصرية. والقول إن كريستوفر كولومبس مول القسم الأعظم من رحلاته عن طريق مستثمرين يهود. ويصل بعضهم إلى حد القول إنه هو نفسه كان من أحد الأبوين يتحدر من أصل يهودي.

وحتى في أيامنا هذه تتكرر القصة ذاتها. لكنها لا نعرفها إلا حين تتحول إلى فضيحة. ومن قبيل ذلك الفضيحة التي تسبب بها تشارلي شابلن.

في كتاب سمير فريد «مدخل إلى السينما الصهيونية» يقول: «لقد صنفت الدعاية الصهيونية فيلم «لديكتاتور الكبير» لشارلي شابلن على أنه صهيوني لمجرد أنه معاد للنازية، وكأن اليهود وحدهم يحتكرون العداء للنازية. وتحول حديث المظلوم في الفيلم عن العالم الجديد الذي يتطلع إليه بعد الحرب إشارة إلى أرض الميعاد في التراث اليهودي، بينما هو في حقيقته إشارة إلى العالم الجديد الذي كانت تتطلع إليه الإنسانية بعد الحرب».

فقد حاولت الصهيونية دعوة شابلن ليصبح مواطن الشرف اليهودي الأول في دولة إسرائيل. وكذلك توجهت بالطلب نفسه إلى أنشتاين. ولكن الاثنين رفضا. وقال شارلي شابلن: «أنا لم أنكر أصلي أبداً. لكنني لا أتبناه. أنا رجل لا يختلف عن الآخرين. هل يقلل أصلي من شأني؟ هل يضفي علي أهمية أكبر؟ إن القول إنني يهودي مثل القول إنني طويل أو قصير. إنه أمر لا علاقة له بالقيمة. ولا أعتقد أنه ينبغي إرسال اليهود إلى فلسطين. فمعنى هذا أن يتم إرسال الكاثوليك كلهم إلى روما».

وقد كنت شاهداً على شيء من هذا حين كنت في الهند في أوائل التسعينات من القرن العشرين. إذ فوجئت بحمى وطنية هندية في الصحف التي كنت أقرأها بالإنكليزية. وكلها تريد أن تنفي أن يكون طاغور يهودياً، أو أن له أية علاقة باليهود.

وتبين أن أحداً ما (هو نكرة فعلاً بالمعنى الثقافي والأكاديمي) قد أفلت كلمة في صحيفة بريطانية تقول إن طاغور ذو أصول يهودية. فانبرى المثقفون والباحثون والأكاديميون الهنود إلى نفي الأمر.

وحتى في الرسم.

وسنقف الآن عند الرسم المرتبط بالدين.

في البدء كانت عملية سرقة يسوع المسيح من أرضه وبيئته تتم بطريقة عنصرية؛ وذلك من خلال تقديمه شاباً أشقر جميلاً، بينما أغلب حواريه سمر الوجوه، سود الشعر. ولكن الرسامين اليهود لم يقفوا عند هذا، بل تعدوه إلى تقديم يسوع نفسه على أنه يهودي. وبالتالي فإن مشاهد المعاناة (الجلجلة والصلب) تتحول إلى رمز لمعاناة اليهودي نفسه. وقد تم تبني المسيح من قبل اليهود نهائياً في القرن العشرين، لأنه كان الرمز الأفضل للتعبير عن معاناة اليهود، وخاصة في ما يتعلق بالمذبحة النازية (الهولوكوست) بعد ربطها بعذاب التيه.

وأفضل مثال على هذا التبني النهائي للمسيح في الفن على أنه يهودي يتجلى في أعمال الرسام اليهودي الشهير مارك شاغال.

ففي لوحته «الصلب الأبيض» تظهر جلية عملية تحويل المسيح إلى اليهودية. يقول كاتب سيرته فرانز ماير، «مع أن المسيح هو الشخصية الأساس في اللوحة، إلا أن اللوحة ليست مسيحية على الإطلاق. المسيح يأتزر حول وسطه بمئزر ينتهي بخطين أسودين يجعلان المئزر أشبه ما يكون بالطيلس الذي يرتديه اليهود في الصلاة. وعند قدميه هناك الشمعدان اليهودي سباعي الأصابع».

وفي لوحته «الصلب الأصفر» يبدو المسيح وقد وضع القلنسوة اليهودية على رأسه وأشرطة الصلاة على ذراعيه. فشاغال يعتبر يسوع أحد أعظم الأنبياء اليهود.

ويتم المزج بين شخصيات العهدين القديم والجديد حتى تتحول شخصية إسحق إلى تمهيد للمسيح، ويصبح النذر بذبح الابن تقدمة لتضحية الأب (الرب) بابنه (يسوع). خاصة وأن إسحق يظهر ممدداً على المذبح بذراعين مفتوحين يتهيآن ليأخذا شكل الصليب. ولكي لا يكون هناك التباس حول "الاستمرارية" بين العهدين ففي خلفية اللوحة يبدو ما يشبه المسيح وهو يحمل الصليب على كتفه.

وحتى في لوحة المسيح الطفل مع أمه هناك شخصية فرعية توحي بأن الطفل سوف يتم ختانه الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهنا نصل أيضاً إلى "سرقة المآسي". والمقصود هو إيصال الناس إلى الاعتقاد بأن الشعب الوحيد الذي تعرض لمأساة مريعة في العالم المعاصر وفي التاريخ هو الشعب اليهودي. وابتداء من التيه في سيناء إلى الدياسبورا (المنفى والشتات اليهوديين) إلى المجزرة النازية ليست هناك أية مأساة أخرى لأي شعب في الدنيا.

ومن أظرف الكتب الفاضحة في هذا المجال كتاب «الهولوكوست في الحياة الأمريكية» لبيتر نوفيك. وظرفه يأتي من كونه يجادل اليهود في أنهم ليسوا أصحاب أكبر مأساة.

فاللعبة المتعلقة بالهولوكوست (المذبحة النازية لليهود) هي ابتزاز العالم كله، وكأن العالم كله كان نازياً، وبالتالي فالعالم كله مسؤول عن المجزرة التي نفذها فيهم النازيون. وكلنا نعرف كم استنزفت إسرائيل والحركة الصهيونية من أموال ومساعدات ألمانية وأوروبية للتعويض عن تلك المذبحة (التي يعاد النظر مؤخراً فيها وفي حقيقتها أو حقيقة تفاصيلها وأرقامها) منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن. ثم ابتزاز الأمريكيين أيضاً لأنهم "سكتوا عن تلك المجزرة". والابتزاز الحالي، الذي يتحول الآن إلى مساعدات عسكرية ومالية لدولة إسرائيل، قائم على السؤال الاتهامي الموجه إلى الأمريكيين: هل ستسكتون مرة أخرى إلى أن يذبحنا العرب؟

ولكي يستمر هذا الاستنزاف يجب أن يظل الهولوكوست مقدساً لا يتطرق إليه الشك. وكلنا نعرف بما جرى لروجيه غارودي وغيره من المفكرين والباحثين لمجرد أنهم دققوا في عدد الضحايا وقالوا: لم يكن الرقم كما أشيع.

فلأنهم شعب الله المختار يجب أن يعيشوا دائماً مع فعل التفضيل "أفعل". فهم يريدون أن يظلوا أصحاب "أكبر" عبقرية وأموال، و"أقوى" دولة، وفي الوقت ذاته أصحاب "أكبر" تيه و"أشد" عذاب و"أكبر" مجزرة و"أفظع" مأساة.

في كتاب بيتر نوفيك هذا فضح لمعركة من نوع غريب. إن المافيا اليهودية تحارب، وتعتّم على أية كتابة عن أية مأساة في تاريخ البشرية، وحتى في التاريخ المعاصر، خشية أن تسرق الأضواء عن الهولوكوست الذي يبيض ذهباً، ويميزهم بأنهم أصحاب المجزرة "الأكبر". فالكاتب يقول إن مجازر ستالين قتلت أعداداً أكبر مما قُتل من اليهود. وحتى هتلر قتل من الغجر أو من البولونيين أكثر مما قتل من اليهود.

وسرعان ما يلجأ اليهود إلى اتهام الكاتب بمعاداة السامية لأنه يريد تحويل الأنظار، أنظار الأمريكيين والأوروبيين تحديداً، عن "أكبر" فاجعة حلت بهم. ودائماً هناك ذريعة هي أن قتل الآخرين لم يكن محاولة إبادة للجنس أو الدين. فاليهود قتلوا لأنهم يهود. أما الآخرون فقد قتلوا لأسباب سياسية أو اقتصادية أو أمنية.

ومسألة أن تكون إبادة الهنود الحمر مأساة مريعة، هذه تصبح من الماضي المنسي. وإذا تم تذكرها فهي مسألة لا تشغل البال. أولاً ليس هناك من يذكّر بها من أهلها. ثانياً هؤلاء من "الأغيار" الذين حل محلهم شعب مختار. ومرة أخرى حسب مقولة ألبرايت «يبدو من الضروري غالباً أن يفنى شعب من طينة أنقص ليظل الشعب ذو القدرات الأعلى». فهؤلاء وثنيون متخلفون مثلهم مثل سكان أوستراليا أو همج إفريقيا.. «نحن نتكلم عن البشر. لا عن هؤلاء».

وأكبر المعارك كانت للتعتيم على مجزرة الأرمن في مطلع القرن، والتي لا يشك أحد أنهم قد قُتلوا لأنهم أرمن. هؤلاء قد يتحولون إلى منافسين على ضمير العالم.

فهم مسيحيون يمكن أن يؤثروا على الضمير الأوروبي. وقد قتلوا لهذا السبب. وقاتلهم هو الخصم المشترك "الإسلامي العثماني". ولكن الباحثين اليهود يجدون تبريرات حتى للعثمانيين في قتل الأرمن. بأنه كانت لديهم "أسباب معقولة" لحملة الإبادة. ثم يتم التخفيف من هول ما جرى بأنها إجراءات عسكرية في وقت الحرب أدت إلى موت هذا العدد الكبير من الأرمن عن طريق الخطأ. "عن طريق الخطأ". هذه هي الذريعة. خطأ الوالي أو العسكر المرافقين، أو العقيدة الإسلامية. ولكن اليهود قتلوا "عن سابق إصرار وترصد" ولأنهم يهود. وقد قتلهم من يجب أن لا يقترف أمراً شنيعاً كهذا. المسيحيون. الأوروبيون. البيض. العرق الأنقى.. وقد آن لهذا المقترف أن يكفر عما اقترفه، أو ساعد على اقترافه، أو تجاهل ما يجري.

وحتى الزنوج.

لقد سُرق الأفارقة من بيوتهم وقراهم وغاباتهم، وتم نقلهم على سفن الرقيق في ظروف لا إنسانية فمات منهم عشرات الملايين في السفن وفي الطريق والسجون، ووصل الباقون بعشرات الملايين ليباعوا ويعيشوا عيشة الرقيق. وهناك ماتت أعداد كبيرة منهم أيضاً بسبب سوء الظروف المعيشية، وبسبب إباحة دمائهم على أنهم ليسوا بشراً أسوياء. وبعد قرون من الاسترقاق تم تحريرهم ليعيشوا عيشة لا تقل قسوة في مجتمع التمييز العنصري. وذلك كله لأن لونهم أسود.

يقول لك الكتّاب اليهود: إن لهذه المأساة أسباباً اقتصادية. ولذلك فهي ليست أكبر المآسي. وقد يهمسون جانبياً: في النهاية هؤلاء كانوا أفارقة ووثنيين وهمجاً.. وسوداً. انظر إلى أشكالهم. وإذا أعيتهم الحيلة في هذا الموضوع قالوا: على أية حال كانت مأساة اليهود في بابل أكبر، حين سباهم نبوخذنصر.

وحتى في مسألة التمييز العنصري الذي مورس ضد الزنوج تلعب عوامل أخرى للتعتيم على هذه المسألة. ففي الولايات المتحدة المعاصرة، وبعض الدول الأوروبية، ما يزال التمييز العنصري ضد الزنوج والملونين هو سمة الحياة فيها. وتتفشى النظرة العرقية حتى في الدول الإفريقية التي كان البيض يتحكمون فيها، كما كان الأمر في روديسيا وجنوب إفريقيا مثلاً، وهو ما اتفق على تسميته بـ "الأبارثيد" (مجتمع التمييز العنصري). ولكن هذا مما لا يجوز الحديث عنه على أنه مأساة للشعوب المحكومة بالتمييز العنصري أو التي يمارس عليها هذا التمييز، لأن الحال هو ذاته الآن في دولة إسرائيل المعاصرة التي تمارس التمييز العنصري ضد العرب.

ومرة ثالثة "يبدو من الضروري غالباً أن يفنى شعب من طينة أنقص ليظل الشعب ذو القدرات الأعلى".

ثم، بعد ذلك من يجرؤ على الحديث عن مأساة الفلسطينيين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكن الأمر لم يتوقف هنا.

كانت الهجمة التالية على المسيحية ذاتها.

هناك تيار انتقادي تحرري موجود في أوروبا، وغيرها، يريد إعادة النظر في الأديان، وإلغاء القدسية عن الأحداث والأشخاص، وإعادة تفسير التاريخ. وليس غريباً عن الأذهان التيار الإلحادي المعاصر الذي يعيد تفسير الأحداث التاريخية والدينية والتدقيق في سير الأنبياء والقديسين.

وقد استفاد اليهود من ذلك أيضاً. فاندفعوا مع المتشككين إلى إعادة قراءة التاريخ.. الديني تحديداً. وكان في وسعهم، ببساطة، التشكيك في كل ما يتعلق بالمسيحية، ناهيك عن رأيهم في الإسلام.

بدأ اليهود يطرحون أن المسيحية ليست ديناً سماوياً. إنها فرع خارجي منبثق عن اليهودية. وفلسطين التي ظهر فيها السيد المسيح هي فلسطين اليهود. وقد قام المسيح نفسه من بين اليهود. وهو ليس إلا مجتهداً يهودياً متطرفاً، أو ضالاً.

وبدا الأمر كأنه بحث علمي مجرد في التاريخ الديني. وينطلق البحث من تساؤلات تبدو مبررة بالنسبة إلى الباحث المتقصي في التاريخ.

وقد انفتحت شهية العديد من الكتّاب (اليهود وغير اليهود) على هذه الموضوعات. فظهرت محاولات عديدة لإعادة كتابة سيرة حياة المسيح أو أحد الحواريين. وكلها كتب تريد أن تشكك في أصول المسيحية الأولى أو في قيمة المسيحية ذاتها. وليس ذلك من منطق علماني أو إلحادي، كما هي الموجة العقلانية التحررية الأوروبية، بل من منطق يهودي أكثر انغلاقاً وتديناً يسعى إلى إلغاء قيمة المسيحية وأصالتها. ويريد أن يقول شيئاً واحداً هو أن المسيحية ليست تلك الديانة السماوية. وهنا يلتقون مع الإلحاديين. ولكنهم لا يكملون الطريق. فاليهودية هي الأخرى دين. ولذلك يقفون عند نفي المسيحية لكي يثبتوا اليهودية بديلاً عنها. فالمسيحية المشكوك فيها ليست أكثر من انشقاق مارق عن اليهودية قام به الحواريون كتاب الأناجيل أو رجال الكنيسة، أصحاب المصلحة في إيجاد دين جديد مستقل.

لم يعد يكفي أن تكون مسيحياً متعاطفاً مع اليهود. يجب أن تقرّ أن اليهودية هي جذرك وأصلك الحقيقيان. والتشبث بالمسيحية صار موقفاً رجعياً متزمتاً ضد العلم والتاريخ والحقيقة.

وحتى الغربيون صاروا يستغربون هذه الهجمة الكتابية على مرحلة المسيحية الأولى. فتستغرب إحدى الصحف مثلاً وتقول إن أول عمل لافت للنظر في هذا المجال هو لنورمان ميلر ذلك "النسونجي السكرجي" في كتابه «الإنجيل بالنسبة للابن». وهو يقدم فيه سيرة حياة المسيح مروية بلسان المتكلم.

وأصدر جاك ميلز - ناشر ومعدّ كتب سابق - «الله، سيرة حياة». كما صدر كتاب «بولس: عقل الحواري» من تأليف إي إن ويلسون. ويقول فيه إن المسيح لم يكن مسيحياً (أي صاحب دعوة)، ولم يكن مهتماً بالدين. ثم روبرت إيزنمان، المختص في دراسة مخطوطات البحر الميت، إذ أصدر كتاب «جيمس أو (يعقوب) شقيق يسوع».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فمن بين التساؤلات التي بدأ طرحها، والتي تبدو منطقية: ماذا حدث لمريم العذراء بعد المسيح؟ هل أكملت حياتها في العذرية؟ أم أنها، بعد أن أدت رسالتها في ولادة يسوع، أكملت حياتها كامرأة طبيعية، فتزوجت وأنجبت؟

ولكن كثيرين من الباحثين البروتستانت، وأعداداً متزايدة من المفسرين الكاثوليك، صاروا أكثر اقتناعاً أن مريم قد ولدت، بعد ولادتها ليسوع، أربعة صبيان أسماؤهم: جيمس (يعقوب) وجوزيس وجوداس (يهوذا) وسيمون، إضافة إلى أختين أو أكثر.

ويقول المعلقون المؤيدون لهذه الطروحات إن إعادة الاكتشاف الجديدة لأهمية جيمس، شقيق المسيح، تبين أن الكنيسة الأولى ظلت تضرب جذوراً عميقة في التراث اليهودي لفترة طويلة. وكانت هذه الكنيسة تتبع مبدأ "يسوع اليهودي".

ويصدر بيير أنتوان بيرنهايم كتاب «جيمس، أخو يسوع». ويقول فيه إن مريم تزوجت بعد ولادة المسيح، وأنجبت أبناء هم أخوة له. وهؤلاء لم يتبعوا كلهم ديانته. وحتى أخوه ووريثه الديني جيمس، وبسبب ثقافته اليهودية العميقة، صار مرجعاً للمسيح نفسه في تقديم الحلول للمشكلات التي يواجهها في المجتمع الذي هو مجتمع يهودي.

بالنسبة للتراث المسيحي الغربي يعتبر بطرس هو الحواري الأكثر أهمية وهو الزعيم بلا منازع للكنيسة الأولى. ويعتبره الكاثوليك البابا الأول. وبهذا فإنه، وبموافقة بطرس الكاملة، قام بول (بولس) الرسول بهداية الكفار الوثنيين الذين كانوا في فلسطين. ولكن هذا سيتناقض جذرياً مع ما جاء في "أعمال الرسل" وفي رسائل بولس الرسول ذاتها. إذ تؤكد هذه الوثائق أن القائد الأول، قرابة عام خمسين ميلادي، هو جيمس (يعقوب) "أخو الرب". وهو القائم على كنيسة القدس. وجيمس كان هو المرجع الأساس في المسائل الفقهية العويصة من نوع: هل من الممكن قبول الوثني في المسيحية قبل أن يمر في اليهودية أولاً؟ وفي كثير من المناسبات كان بطرس وبولس ينصاعان لرأي هذا الأخ جيمس. ويقولون إن الوثائق المأخوذة من خارج الأناجيل تدل على أن جيمس كان شديد الاحترام للقانون اليهودي. وظل قابلاً للمهتدين من غير اليهود في المجتمع المسيحي. غير أنه طلب من المؤمنين الذين ليس لهم أصل يهودي أن يراعوا بعض القواعد القائمة على أساس يهودي. وقد عارض بشدة محاولة بولس، الذي كان يريد إعادة بناء هوية "إسرءيل"، وإعادة الاعتبار لدور القانون فيها. وبمعزل عن اتباعه لآراء يسوع فإنه في كثير من الأمور لم يكن من الممكن تمييزه عن اليهود الآخرين. وكان من الممكن أن يندهش لو أن أحداً قال له إنه الآن من أتباع دين جديد.

ما يتضمنه هذا الكلام بشكل غير مباشر أن هذه الأرض، قبل مجيء المسيح، كانت يهودية وفيها مهمشون وثنيون بذلت الجهود لهدايتهم أو إبادتهم. بعضهم اهتدى إلى اليهودية والبعض الآخر إلى المسيحية، أو إلى المسيحية عبر اليهودية. وكانت القوانين والأعراف والتقاليد والقوانين فيها يهودية. وعن طريق أخ للمسيح، والدور الخاص الذي قام به، تكون قد قبلتَ يهودية الأرض والتاريخ في المنطقة. وحتى ورود موضوعة "الوثنيين"، يجعل السكان الأصليين يشبهون الوثنيين البدائيين في

كافة أصقاع الأرض التي غزاها الأوروبيون، والذين إما أن يتحضروا ويهتدوا، وإما أن يبادوا. ومن غير ذلك لا يستحقون أي اهتمام تأريخي أو ديني. "فالتاريخ لا يبدأ إلا حين يصل الإنسان الأبيض".

مرة أخرى: هل يسمح للوثني أن يصبح مسيحياً قبل أن يمر في الديانة التوحيدية السابقة، اليهودية؟ من يستطيع أن يجيب عن سؤال كهذا إلا جيمس أخو يسوع، المسيحي ذو الأصل اليهودي؟

ولكن انشقاقاً حدث في الفئة المنشقة (المسيحية) ذاتها. وهذا الانشقاق الآن بين "خليفة" النبي وبين أخيه. هذا الأخ (جيمس) يريد الاعتراف بالأبوة اليهودية لديانته، بينما ذاك الخليفة (بولس الرسول) يريد عقوقاً دينياً. فيعلن الانشقاق التام والخروج النهائي على الأب اليهودي.

لقد انتصر الخليفة على الأخ الوارث. وهنا ستبرز المأساة الأخرى التي يحلو لليهود تلبسها. إن انتصار تيار بولس الرسول قد هزم بالضرورة تيار جيمس الأخ. وبما أن التاريخ يكتبه المنتصرون فقد تم إخفاء شخصية الأخ اليهودي المسكين وتغييبها نهائياً عن التاريخ. وبفضل العلم نستطيع الآن أن نكشف عنه الستار.

ومثلما يجب القول الآن، تلبيةً للمطالب الصهيونية، إن المسيح يهودي؛ يجب القول أيضاً إنه كان للمسيح أخ - يهودي بالضرورة - مضطهد ومغيب بسبب الطغيان المسيحي وقد آن الأوان لإعادة الاعتبار إليه. (مثلما يعاني اليهود الأوروبيون من اضطهاد المسيحيين الأوروبيين وقد آن الأوان لإعادة الاعتبار إليهم). وقد آن الأوان لإحقاق الحق اليهودي. فبعد المسيح "صار تاريخ اليهود في معظمه تاريخ معاداة السامية" كما يؤكد الكتاب اليهود، ومن أبرزهم إي إم روزنتال وأرثر جيلب.

تقول صحيفة الإندبندنت في تعليقها على الكتاب: «وإن إخراج جيمس من مدارج النسيان، الآن، يلقي الضوء على التغييرات التي أصابت العلاقة بين المسيحية واليهودية. وكيف تحولتا من كونهما منطلقتين من جذر مشترك إلى مرحلة العداء. ومنذ مرحلة ما بعد "الهولوكوست" يتكشف لنا كم كان سخيفاً ذلك الموقف المسيحي المعادي للسامية".

وبعد قراءة كتاب بيير أنتوان بيرنهايم «جيمس، أخو يسوع» يخرج القارئ بنتيجة هي أن اليهود، الصهاينة، أبطال اللوبي اليهودي في كل مكان الآن، لم يكونوا يطالبون بأمر جديد حين شنوا حملة ضغوطاتهم على الحبر الأعظم وعلى مؤسسة الكنيسة البابوية في الفاتيكان للتوصل إلى إعلان أن يسوع يهودي. فالمطلوب بناء عليه أن يعرف الجميع أن هذه الأرض، قبل مجيء المسيح، كانت يهودية. وكانت القوانين والأعراف والتقاليد والقوانين فيها يهودية. وحتى ورود موضوع أن "الوثنيين"، على أساس أن الأرض لم يكن فيها إلا وثنيون ويهود، يمكن أن يأتوا إلى الدين الجديد (المسيحي) فإن الإيحاء يتحول إلى القول إن هؤلاء أقلية تافهة لا قيمة لها، وإن المشكلة الأساس هي بين اليهود (الذين هم السكان والأكثرية) وبين هذا الدين الجديد. وذلك بعد أن كانت المشكلة بين اليهود والسكان الأصليين الوثنيين

البدائيين (وهذا هو موضوع الجدل حامي الوطيس الذي يخوضه وايتلام في كتابه «تلفيق تاريخ إسرءيل التوراتية» الذي بدأت الكتابة هنا بالحديث عنه).

وليس الأخ جيمس وحده الذي يجب أن يعاد إليه الاعتبار. بل يهوذا أيضاً.

فالسؤال الآخر الذي استهوى هذا النمط من الباحثين يتعلق بيهوذا. والسؤال هو: هل كان يهوذا خائناً للمسيح فعلاً؟ وإذا لم يكن كذلك فلماذا ألصقت به تلك التهمة؟ ومن هو يهوذا أصلاً؟

وكان أهم كتاب قدم عن يهوذا هو كتاب توماس دو كوينسي، في القرن التاسع عشر. وكان دو كوينسي (1785 - 1859) مشهوراً بكتابه «اعترافات ماضغ الأفيون». وكان يتطلع إلى أن يكون "المرشد العقلاني للبشر". وقد قضى معظم حياته بعد النضج وهو يتعاطى الأفيون. وهمّه هو التشبث بما يمنحه إياه الأفيون من أحلام الظهيرة ورؤاها. لكنه تميز بنقد أدبي لافت للنظر، وخاصة في ما يتعلق بشكسبير.

وتأثراً بشكسبير رأى دوكوينسي أن المسيح، مثل هملت، "ليس مؤهلاً للفعل ولمواجهة تقلبات الحياة". وقد وشى به يهوذا إلى الكاهن الأعظم، الذي قام بدوره بتسليمه إلى الرومان، لأنه (يهوذا) كان يعتقد أن يسوع يحتاج إلى أن يُدفع إلى الفعل بقوة خارجية. وبالتالي فإن جريمة يهوذا، كما يراها دوكوينسي، كانت في خدمة أغراض المسيح وأهدافه، وأنها لم تكن تستحق تلك اللعنة الأبدية.

ويجيب نورمان ميلر المعاصر على التساؤل حول يهوذا بقوله: «إنه رجل ذو قضية». وليس شخصية هامشية. ويقول في مقابلة معه بعد نشره كتابه «الإنجيل بالنسبة للابن»: «مشكلة يهوذا مشكلة بنيوية موجودة في النص وليست موجودة في الحقيقة. فالمشكلة هي أن النص التقليدي يحتاج إلى ضحية. ويبحث عنها. فكان يهوذا هو هذه الضحية، مع أنه شخص ورع ورحوم. إنه واحد "من بلاشفة ذلك الزمان"».

ويرى ميلر أن طريق الجلجلة كان يمكن أن يكون أكثر عبقرية وإيحاء: «لو أننا فهمنا يهوذا كما يجب أن نفهمه. لقد أضعنا وقتاً طويلاً ونحن نلاحق ذلك المسكين. أجل لقد ضحك علينا الشيطان كثيراً ونحن نطارد يهوذا. وأنا أرى أنه قد آن الأوان لكي نعيد إليه الاعتبار. لأنه، كأي يساري آخر، كان يعتقد أن الشفقة مضادة للإيديولوجيا. وإنني أعرف يساريين كثيرين كان يمكن أن يكونوا رائعين لو أنهم استخدموا قلوبهم بصورة صحيحة».

لماذا؟

يقول: «لا أجرؤ على القول إن الفراشات هي التي صنعت التاريخ. ولكن الذئاب أيضاً لم يصنعوه».

ونتوقف عند كتاب «يهوذا: خائن يسوع أم صديقه؟»، لوليم كلاسين، والذي هو سيرة حياة يهوذا بتصور جديد ومعاصر.

وقبل أن نسترسل مع الكتاب نذكر أن هذا الكاتب (البروفسور) هو إسرائيلي، كندي الأصل مختص في الدراسات التوراتية واللغوية، وكان في أوائل السبعينات من عمره حين ألف هذا الكتاب. كما كان في معهد التوراة (إيكول بيبليك) في القدس.

والبروفسور كلاسين يعود إلى العزف على مقولة إن تاريخ اليهود بعد المسيح هو تاريخ العداء للسامية، أي لليهود. فهو يذهب، في سيرته التي كتبها عن يهوذا، إلى القول إنه في الوقت الذي بدأت فيه الكنيسة المسيحية الأولى تنفصل عن اليهودية في نهاية القرن الأول قامت، عامدة، باختراع قصة خيانة يهوذا ليسوع، أو أنها ضخّمت تفاصيل تلك القصة. ورفّعته من الدور الهامشي (فهو لم يذكر إلا ثلاث مرات في إنجيل مرقص الذي هو أقدم الأناجيل) لتصويره على أنه اليهودي الخائن ليسوع.

وحين طلب ناشر أمريكي من البروفسور كلاسين أن يكتب سيرة جديدة ليهوذا في عام 1989 كان يحمل الاعتقاد السائد بأن يهوذا مثال لنكران الجميل والخيانة. ويقول كلاسين إنه بعد أن درس الروايات المتعلقة بيهوذا في الأناجيل بدأت وجهة نظره تتغير. وقد اكتشف أن الفعل اليوناني paradidomi المستخدم في الأناجيل لوصف تصرف يهوذا يعني "يسلّم"، وليس "يخون" كما كان يترجم عادة. ويرى أن المترجمين قد صاغوا تفسيراتهم بما يتلاءم مع الفكرة السائدة عن خيانة يهوذا. ثم يقول: «لم أصدق في البدء أن الكلمة قد ترجمت بهذا القدر من السوء. ولم يقدم أحد من منتقدي كتابي تفسيراً أو ترجمة أخرى».

ولعل الدراما المثيرة في هذا الموضوع هي في القول إن الحواريين كلهم قد ركبهم ذنب أنهم قد تخلوا عن يسوع. وأن الندامة القاسية هي التي جعلتهم يبحثون عن كبش فداء (يهوذا) يضخمون خطأه لكي يستوعب أخطاءهم أو يغطي عليها.

ولكن كلاسين يصل إلى حد تصوير أن يهوذا كان يظن أنه يهيئ لمواجهة ومحادثة ودية حميمية بين يسوع والكاهن الأعظم كايافاس. ويؤيد الدليل الإنجيلي، كما يقول كلاسين، فكرة أن يهوذا كان في أسوأ الأحوال مخبراً صغيراً ومؤقتاً وليس خائناً أصيلاً دائماً. ويوضح الأمر بقوله: «إن المصادر الأقدم لدينا تفيد أن يهوذا لم يفعل أي شيء إلى أن طلب منه يسوع أن يفعل. وحتى مشهد الخيانة الأكبر في البستان (حديقة الجثمانية) أقل وضوحاً مما يبدو عليه. فحين حدد يسوع من هو العميل المزروع لم يكن يهوذا يعرف أن الكهنة سوف يسلمونه إلى الرومان لكي يتم قتله. وقد فوجئ وانفعل وانزعج حين تم تسليم يسوع إلى بونيتوس بيلاطيس».

ويوحي كلاسين أنه ما زال من المحتمل أن يُرى يهوذا على أنه التابع بالغ الحماس، والمدفوع إلى التفسير الأكثر من حرفي للأوامر، والذي ينطلق بحماس لخدمة القضية.

ويعود كلاسين إلى الموضوع ذاته، موضوع الأصول اليهودية للمسيحية، فيصر على أن تشويه صورة يهوذا قد بدأ مع بدء افتراق الكنيسة المسيحية الناطقة باليونانية عن أصولها اليهودية في نهاية القرن الأول. وصار يهوذا نموذجاً لليهودي

الذي خان المسيح، والشخصية المحورية في الميثولوجيا "المعادية للسامية" عبر القرون.

ومن أطرف التعليقات على ما كتبه كلاسين التعليق الصحفي القائل إن البروفسور في كثير من الحالات كان يدافع عن يهوذا بكلام يصلح للدفاع عن أو جي سمبسون من حيث إيجاد ما لا يحصى من التفسيرات لسلوكه.

ولكن في ما يتعلق بحالة يهوذا هناك أسئلة عديدة يطرحها كلاسين بذكاء، ويرى أنها تبقى دون إجابة. وهذه الأسئلة تدخل في باب علم النفس الروحاني:

هل ذهب يسوع إلى القدس باحثاً عن موته؟ وإذا صح ذلك فإلى أي مدى تعاون مع يهوذا، أو تعاون معه يهوذا، من أجل تحقيق ذلك؟ وماذا كانت دوافع يهوذا؟

ولقد كان السؤال الأخير مغرياً للكتّاب دائماً. الجديد الذي يضيفه كلاسين هو أن شخصية يهوذا اختراع تاريخي. وعند سرد حكاية أيام المسيح الأخيرة ظهر الميل لتضخيم دور يهوذا لأسباب الإثارة الدرامية. ولكن الدافع الأهم لهذا التشويه ليهوذا هو الحاجة السياسية والدينية لدى الكنيسة الفتية، بعد سقوط القدس في العام سبعين ميلادي، وتحولها إلى معاداة اليهود.

ويستنتج كلاسين: «لقد بدأت الكنيسة حديثة العهد ترى الحاجة لرسم حدود فاصلة تميز بها نفسها (عن اليهودية). ووجدت في يهوذا شخصية ملائمة؛ لأنه كان يهودياً وحوارياً في وقت واحد».

كانت الكنيسة الأولى منشغلة بالعلاقة بين يسوع والله، وليس بدوافع الرجل الذي قاد الجنود إلى حديقة الجثمانية. وفي إنجيل يوحنا وحده، والمكتوب في وقت متأخر، يصبح لشخصية يهوذا ملامح خاصة. ويظهر فيه وهو يتآمر سراً لخيانة المسيح.

وليس هناك دليل خارج الأناجيل على وجود يهوذا، كما يقول كلاسين. وقد أعيى الباحثين أن يعرفوا شيئاً عن خلفيته من خلال بقية اسمه "الإسخريوطي". فقد يدل الاسم على أن يهوذا ينتمي إلى عائلة سيخاري المناوئة للرومان. كما قد يعني أن يهوذا قد جاء من قرية خريوط، وأنه كان دابغ جلود أو قاطف ثمار. وربما أضيفت كلمة "الإسخريوطي" إلى اسمه بعد حادثة الصلب. وبالتالي فإن الاسم يكون مشتقاً من الفعل العبري ساخار بمعنى "سلّم".

ويورد كلاسين في ختام كتابه قولاً على لسان يهوذا هو: «لقد وقع الاختيار علي. وقد أوعز لي يسوع أن أقوم بما فعلت».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وليس الأمر، كما قد يبدو للوهلة الأولى، اجتهادات كتّاب متطرفين قابلة للأخذ والرد، أو الرفض والقبول. بل هو جذور ممتدة في الموسوعات والأكاديميات والأبحاث الأكاديمية والجامعات، كما بيّن وايتلام وفنّد بكفاءة وشجاعة مدهشتين.

لقد كانت هناك محاولة لتثبيت فكرة أن المسيحية خارجة من رحم اليهودية. فهي ابنتها الشرعية. وتصبح العلاقة أمومية.

ولكن هذا يتضمن، بشكل غير مباشر، ثم بشكل واضح وصريح، الرغبة في إلغاء المسيحية ذاتها، وتقرير الموقف منها.

فبعد أن توصلوا إلى جعل المثقف المسيحي، المتدين أو العلماني، يحس بضرورة العودة إلى التوراة لمعرفة جذوره الدينية، بدأت الهجمة اليهودية المضادة في إسرائيل: ليس من المسموح لليهودي أن يقرأ الإنجيل.

في السابق كان هناك طرح للتواؤم المسيحي اليهودي، والآن يتضح القرار: ليس هناك مسيحي أو مسلم أو بوذي. هناك يهودي فقط. والبقية جنتيل (أغيار).

ودون بذل الجهد للاستنتاج هناك مواقف إسرائيلية واضحة في هذا المجال. فمنذ فترة ليست بالبعيدة صدر قرار عن الكنيست الإسرائيلي لمنع قراءة أو حيازة جميع النصوص المسيحية بما في ذلك الإنجيل. «كل من توجد في حيازته نصوص مسيحية مهدد بالسجن عاماً كاملاً. ومن يطبع أو يوزع أو يستورد مطبوعات تشجع على اعتناق المسيحية يعاقب بالحبس».

فشوميل غولدينغ مدير "معهد الجدل التوراتي" ومؤسسه في القدس يتفاخر بما حققه في الكنيست بعد ستة عشر عاماً من "الكفاح ضد المسيحية". ويقول إنه «لا يثق بأحد ولا يقبل تفسير إمكانية التعايش مع المسيحيين»، أو من يسميهم "الصهاينة المدسوسين، والموسويين".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد هذه الحملة تأتي حملة أخرى على البابا نفسه، والمؤسسة البابوية ذاتها، لتحميلها قسطاً من مسؤولية الهولوكوست.

ومن الأمثلة على هذه الحملة كتاب «البابا ضد اليهود، دور الفاتيكان في بروز اللاسامية الجديدة» لدافيد آي كيرتزر، وكتاب «البابا والناس ومصير الكاثوليكية» لجون كورنويل.

وقد سبق للكاتبين أن كتبا عن البابوية التي جعلاها هدفهما. والكتاب السابق لجون كورنويل «البابا الخاص بهتلر Hitler's Pope» لفت انتباهاً كبيراً عندما اتهم بيوس الثاني عشر باللاسامية، وبتسهيله وقوع المجزرة بتوقيعه على اتفاقية مع ألمانيا النازية. ويروي دافيد كيرتزر في كتابه المتشكك «اختطاف إدغاردو مورتارا» قصة اختطاف طفل يهودي في السادسة من عمره وفصله عن أبويه في الدولة البابوية في القرن التاسع عشر. فقد طلب القانون الكنسي أن يتم تعميد الولد على يد خادم لكي يربى بوصفه كاثوليكياً.

وكتاب كيرتيز هو الأكثر إثارة. وهو كتاب جدلي أكثر مما هو تاريخ. فالكتاب تفنيد لبيان الفاتيكان 1998 «نحن نتذكر: تأملات حول شواه Shoah ».

وهذه الوثيقة عبارة عن محاولة لتحديد دور الكنيسة ومشاركتها في جريمة التصفية النازية ليهود أوروبا. ففي هذه الوثيقة يعترف الفاتيكان بالدور الذي لعبه بعض الكاثوليك الأفراد، عاديون ورجال دين، في الهولوكوست. ثم توصل إلى اضطهاد

اليهود، منذ قرون، الذي مارسته الكنيسة وتاريخ "معاداة اليهود" في تعاليم الكنيسة. ولكنه يميز بوضوح بين معاداة اليهود على أساس ديني، وبين معاداة السامية النازية لهم على أساس عرقي وعنصري. وقد قال الفاتيكان «إن "شواه" فعلُ نظام وثني حديث كلياً. ومعاداته للسامية لها جذورها خارج المسيحية -وليس في المسيحية ذاتها. ولتحقيق أغراضها لم تتردد في معارضة الكنيسة واضطهاد أفرادها أيضاً».

ومثل كيرتز وجد كثيرون من الكاثوليك بيان «نحن نتذكر» ناقصاً، إن لم يكن "منافقاً". فهناك تمييز يجب أن يقام بين اللاسامية النازية والمسيحية. ولكن فكرة أن اللاسامية الحديثة لها «جذورها خارج المسيحية»، كما يقول كيرتيز «لا تصمد أمام التدقيق والتمحيص». فاللاسامية هي في صلب المسيحية. مع أن الرأي السلبي في اليهود يمتد إلى اليونان والرومان، قبل المسيح بكثير، كما أوردنا في مكان سابق.

ويجعل كيرتيز قصته تبدأ بالثورة الفرنسية ودعوتها للديموقراطية وحرية الدين والتعبير. وبسبب ذلك لم يكن للثورة أصدقاء كثيرون في الفاتيكان. وقد اتخذت المقاومة البابوية لروح الثورة الفرنسية أشكالاً عديدة، بما في ذلك طرد اليهود -الذين كان تحررهم وبروزهم المحدود نتيجة للثورات اللبرالية- بوصفهم تجسيداً لكل شرور العصور الحديثة. ويبين كيرتيز كيف أن الفاتيكان، من خلال نشاطه الدبلوماسي وتحالفاته السياسية وكتابات الصحافة الكاثوليكية بشكل خاص، قد قام بأكبر حملة تشهير عنصرية ضد اليهود. ومنها الاتهام بالجرائم الطقوسية وعدم الولاء السياسي والفساد الأخلاقي والخوف الدائم من قوة اليهود الاقتصادية والتخويف من وجود مؤامرة يهودية ماسونية ضد الكنيسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهنا نصل إلى خاتمة المطاف الذي يلتقطه الكتاب الخطير «تلفيق تاريخ إسرءيل التوراتية» لوايتلام.

فأنت لا تكاد تفتح مرجعاً موسوعياً أو أكاديمياً حول مسألة في التاريخ القديم، إلا وتجد أن المرجعية الأساس فيه هي التوراة أو اليهود أو الثقافة العبرية.

وقد لفت نظري (عند قيامي بإعادة ترجمة الإلياذة) في الهوامش التي وضعها ستيفن شانكمان لترجمة ألكسندر بوب للإلياذة، مثلاً، أنه يشرح في هوامش الفصل الرابع مسألة استخدام الأسلحة وأنواعها في الإلياذة. وكلما ذكر سلاحاً من هذه الأسلحة، حتى ضرب الحجر في القتال، لا يجد ما يقارن به إلا عند اليهود. وكأن اليهود هم الذين اخترعوا للإنسان إمكانية أن يقاتل بالحجر أو حتى بالأيدي.

وفي الموسوعات تطلب معلومات عن الإلياذة فيبدأ الكلام على النحو التالي: «بمعزل عما قدمه العبرانيون من حكايات ليس هناك في التراث الإنساني القديم عمل أكثر أهمية من الإلياذة».

وحتى في موسوعة إيروتيكا لا توجد للعادات الجنسية القديمة مرجعية إلا في التوراة.

حتى القبلة يأتي الحديث عنها في الموسوعة البريطانية (بريتانيكا) على الشكل التالي: «للقبلة كشكل للتحية والسلام تاريخ طويل في الحضارة الغربية، مع مرجعيات تعود إلى العهد القديم والإغريق والرومان والشعوب الجرمانية».

وكما نرى فقد تم حشر العهد القديم (التوراة) على أنه مرجعية غربية، مثل الإغريق والرومان، مع تجاهل أصوله الفلسطينية أو المشرقية.

وعند البحث عن الأبجدية تستغرب كيف يزج باليهود عند الحديث عن موضوع مثل أبجدية أوغاريت (رأس شمرا)، أول أبجدية في التاريخ. إذ يتم اللجوء إلى استخدام نوع من التعابير الغائمة التي يمكن أن تذكّر باليهود دون ذكرهم بالضرورة، ولكن بما يمكن أن يوحي بهم.

في موسوعة «الإنكارتا» يأتي الكلام عن الأبجدية كما يلي: «الفرضية السائدة هي أن أول أبجدية معروفة قد وجدت في فلسطين وسورية بين 1700 - 1500 ق.م. وتعرف هذه الأبجدية باسم السامية الشمالية. وقد اعتمدت الأبجديات العبرية والعربية على هذا النمط. وما تزال العبرية والعربية تحتويان على... إلخ». وعن الأبجدية اليونانية والرومانية يبدأ الحديث على النحو التالي: «في الفترة الواقعة بين 1000 و900 ق.م تبنى اليونانيون الفرع الفينيقي من الأبجدية السامية».

وفي موسوعة كومبتون يأتي الكلام عن الموضوع بالطريقة ذاتها: «بين 1500 و1000 ق.م ابتكر ساميّو سورية أنظمتهم الخاصة في الكتابة».

إن استخدام كلمتي "السامية" و"الساميون"، في موسوعات العصر الحديث هذه، يحيل العقل الأوروبي، وربما العالمي، إلى اليهود حتماً. فتهمة معاداة السامية لا تعني إلا معاداة اليهود. وبهذا فإن "اللغة السامية" تستطيع أن توحي بأنها لغة اليهود وحدهم. كما أن الساميين لا يمكن أن يعنوا في هذه الحالة إلا اليهود.

وفي هذه الموسوعات كلها كلام يغيظك بانحيازه المجحف الذي يدعي الموسوعية والعلمانية والأكاديمية. فمدينة حماة السورية، التي تعترف موسوعة كيمبتون أن فيها آثاراً حثية (أي أنها تعود إلى الألف الثانية قبل الميلاد)، لا تجد مرجعية لها إلا كيف عرفت بالعبرية باسم "حاماث". ودمشق التي تعترف الموسوعة أنها تعود إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد لا يذكر عنها إلا أن داوود قد فتحها عام 333 ق.م. وأن أهلها في الأحياء القديمة يعيشون فيها مثلما كان يعيش الناس أيام التوراة. وحتى كلمة "إسلام" حين تبحث عنها في موسوعة مثل «الألفية الجديدة» تطالعك المادة الأولى فيها على الشكل التالي (إسلام: جامع، إسرائيل) ومعها الصورة المرافقة، صورة المسجد الأقصى وتحته كتابة: «مصلّون خارج المسجد الأقصى، جبل الهيكل، القدس، إسرائيل».

كل تاريخ يستمد قيمته أو معناه من علاقته بإسرءيل أو اليهود أو العبرانيين.

وهؤلاء الكتاب والباحثون ومعدّو الموسوعات ليسوا صهاينة بالضرورة. قد لا يكونون كذلك. لكنهم اعتمدوا على مصادر معلومات سائدة، وكثيراً ما يكون لها

صبغة أكاديمية. وهي معدّة من وجهة النظر اليهودية، كما أوضحنا، أو أنهم تقبلوا المعلومة الوحيدة المتاحة لهم دون نقاش.

ويقول وايتلام: «كان اختراع أُلبرايت لإسرءيل ذا أهمية كبيرة بالنسبة إلى الدراسات الكتابية في القرن العشرين والتي توالدت وتكاثرت على أيدي مجموعة من الخريجين المؤثّرين الذين تبوأوا مراكز 'أكاديمية' مهمة في أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية كافة».

وقد تمت العملية، كما يوضحها لنا كتاب وايتلام، بتفريخ المقولة من أجل تعميم انتشارها: طلاب لاهوت غير يهود يتلقون علماً دينياً متهوِّدا. ثم يتحولون هم أنفسهم إلى أساتذة وباحثين وأكاديميين مشبعين بتلك الأفكار التي يلقنونها لطلاب آخرين في جامعات أخرى وضمن اختصاصات تبدو غير مرتبطة بالدين أو بالسياسة.

وكما يوضح وايتلام: «في قائمة تقرب من خمسة وستين كاتباً وكتاباً، تعود تواريخها من القرن الثامن عشر إلى أواخر القرن العشرين، ليس هناك إلا عنوانان يعالجان تاريخ سورية وفلسطين بمعزل عن تاريخ إسرءيل ويهوذا أو الشعب اليهودي -العبري».

وللتقليل من إمكانية النقاش حول الموضوع جُعل تاريخ المنطقة في البداية فصلاً من البحث الديني وليس البحث التاريخي. وينوّه وايتلام: «واستهلك البحث عن إسرءيل.. مراجع فكرية ومادية استثنائية من جامعاتنا (الأمريكية) ومعاهد اللاهوت والمدارس الدينية والمعاهد اللاهوتية وحلقات البحث ودوائر الآثار؛ وبشكل خاص في الولايات المتحدة وأوروبا وإسرائيل. وإن إلقاء نظرة سريعة على نشرات هذه المؤسسات وفهارسها يكشف لنا عن مناهج متعددة حول تاريخ إسرءيل وآثارها، مُدْرَجةٍ في سياق دراسة الكتاب العبري، من وجهات نظر يهودية ومسيحية. وينطبق الأمر ذاته على الجامعات "العلمانية" التي تحتوي على فروع للدراسات الدينية أكثر من المعاهد اللاهوتية. ومما يثير الاهتمام ويحمل الدلالات الكاشفة أنني استطعت أن أكتشف عدداً قليلاً جداً من المناهج حول تاريخ إسرءيل في فروع التاريخ أو التاريخ القديم. ويبدو أن التاريخ الإسرءيلي القديم هو حكرٌ على كليات الدين أو اللاهوت؛ وليس أقسام التاريخ».

هناك تثبيت للمعلومة يتم في الموسوعات، ثم ينتقل إلى كليات اللاهوت الجامعية من خلال أساتذة منحازين أو غير مدققين. وبعدها ينتقل الخريجون إلى مجالات أخرى غير لاهوتية بالضرورة حاملين تلك القناعات معهم.

«.. وهذا التأثير كبير نظراً لوجود الكثيرين من طلابه -طلاب الباحث اليهودي ألبرايت- يسيطرون على البحث العلمي الأمريكي الكتابي من خلال مواقعهم وترقياتهم إلى مواقع أكاديمية أعلى. كما أن منشوراتهم وتدريباتهم لأجيال جديدة تالية من الطلاب تعني أن آراء ألبرايت وأبحاثه قد تركت علامتها الراسخة في هذا المجال.

وقد استطلع بورك لونغ الآلية التي تم من خلالها توالد آراء ألبرايت حتى من خلال أعماله غير المنشورة. إن خلق هذه الشبكة الفاعلة وتدعيمها عامل مهم أيضاً لطرح مشكلة أين يمكن أن تتواجد دراسة تاريخ فلسطين القديمة في المستقبل وهي تتحرر من سيطرة الدراسات الكتابية».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولذلك يحس القارئ أو الباحث أن التاريخ مهوّد، والمعرفة كلها مهودة. وإذا لم تكن لديك حساسية نحو الموضوع تحس، كما يحس أي قارئ آخر لهذه الموسوعات والأبحاث في العالم (في الصين أو المكسيك أو غانا)، أن تاريخ البشرية، وخاصة في منطقة ما يسمى بـ "الشرق الأوسط"، تاريخ يهودي، أو أنه لا تاريخ لها إلا عند اليهود. لقد بدأ باليهود، ولليهود وحدهم فضل إيجاده وحفظه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقول لنا وايتلام بوضوح شديد: «صار الماضي منطقة متنازعاً عليها»، مثلما أن الأرض والحاضر والهوية المعاصرة مناطق متنازع عليها.

فنحن العرب، إذاً، لم نُقتلع من الأرض فقط، بل جرت محاولة اقتلاعنا من التاريخ ومن أذهان البشر المعاصرين، وحتى العلماء والمتخصصين منهم.

ولقد تردد في مجالات كثيرة أن العقل الغربي العنصري لا يرى التاريخ إلا حيث يتواجد الإنسان الأبيض. ولا يبدأ التاريخ في أية بقعة من العالم إلا عند وصوله إليها. فالقارة الأمريكية لا اسم لها قبل اكتشافها. ولذلك تأخذ اسم أمريكو فيسبوشي الأبيض الذي اكتشفها. والغربي (الأبيض) لا يأتي إلى أرض، بل هو "يكتشفها". وإنه إذ "يكتشفها" إنما يخلقها على صورته ومقاسه. «فأمريكا قد اختُرعت على صورة المخترع»، كما يقول أُغُرمن. وبهذا يصبح لها وجود. وقبل ذلك كانت في العدم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقد أحسن اليهود الاستفادة من هذا الحس العرقي المتعالي، فصارت شخصية اليهودي تتماهى مع شخصية الأبيض في التعامل مع الشعوب الأخرى.

ونحن نلحظ الضخ الإعلامي والثقافي في الصحافة والسينما والموسوعات والإنترنت، وحتى في أفلام الكرتون والغيمز (ألعاب الكومبيوتر). وكلها تتم تغذيتها من وجهة النظر اليهودية العنصرية البيضاء. وبعد الأبيض الخيّر أمثال طرزان وجيمس بوند المنقذ (من شرور الملونين) تأتي أفلام الخيال العلمي وفيها اليهودي منقذ العالم.

وفي أفلام الأطفال على أنواعها يكون الشرير إما صينياً أو إفريقياً أو.. عربياً. ويُعرف الجميع من أشكالهم الغريبة، بينما يعرف العربي من لباسه واسمه إضافة إلى أفعاله الشريرة.

وهذه المسألة لم تكن واضحة تماماً للكثيرين من العرب غير المتخصصين.

ونحن أيضاً كنا مشغولين بالحديث عن سيطرة الصهيونية المعاصرة على جوائز الأدب وعلى الصحافة والسينما والتلفزيون. وبين حين وآخر نفاجأ بفيلم عن التاريخ يقحم اليهود في صنعه أو يلغينا منه.

وهنا يشير وايتلام إلى مسألة ذات أهمية بالغة. وهي أن الفلسطينيين والعرب قد حصروا صراعهم الثقافي مع الصهيونية في حلبة الصراع السياسي. وبالتالي فإن الجدل حول الأحقية في فلسطين، والأحقية في الوجود أصلاً، لم يكن يعود في مناقشته وطروحاته إلى ما قبل القرن التاسع عشر. بينما كانت الصهيونية تلتهم التاريخ كله ابتداء من العصر الحجري. ومن لا يؤمن بمسألة الأرض الموعودة (التي يقولون إن الله قد وعدهم بها)، سيجد نفسه أمام وجود يهودي تاريخي مزعوم في المنطقة يعطي شرعية أخرى للدعاوى اليهودية والصهيونية.

لقد هيمنوا على التاريخ ليسكّنوا الواقع الذي استولوا عليه في حضن ذلك التاريخ ويرضعوه حليبه.

إنهم يؤلبون العالم ضدنا، ويحشدونه معهم. هذا إذا اضطروا إلى الاعتراف بأننا موجودون. ونحن كنا دائماً نتجاهل العالم معتقدين أن إيماننا بحقنا يكفي لإنجازه، وأننا نستطيع الاستغناء عن العالم، أو أننا نستطيع الاكتفاء باتهام هذا العالم بالخضوع للابتزاز الصهيوني، أو بالتآمر ضدنا.

وفي كثير من الحالات يتوقف رد فعلنا عند الامتعاض المستسلم: «إنهم يسيطرون على الإعلام». ولكنهم في الواقع كانوا يصنّعون عقل العالم المعاصر. ولم تكن هذه العملية متوقفة على الإعلام الموجه إلى عامة الناس، بل هي ممتدة في الأكاديميات والدراسات التاريخية وتصنيع الموسوعات العلمية وتغذية الإنترنيت بالمعلومات.

سنكتشف الآن حجم الخسائر الحقيقية التي تعرضنا لها.

نحن لم نخسر الأرض والوطن والبيوت والمزارع فقط، بل خسرنا التاريخ ومنابع المعرفة أيضاً. وهذا يكشف لنا عن الاتساع الحقيقي لميدان الصراع. إن الصراع قائم (وفي غيابنا في كثير من الأحيان) في العالم كله، في الجامعات والدراسات والتعليم والموسوعات وتكوين عقل هذا العالم. وليس في فلسطين وجوارها والمخيمات فقط. واكتشاف كهذا يجب أن يدفعنا إلى التعويض عن غيابنا عن ميادين كثيرة في هذه المعركة المصيرية.

(تم الكتاب بحمد الله)

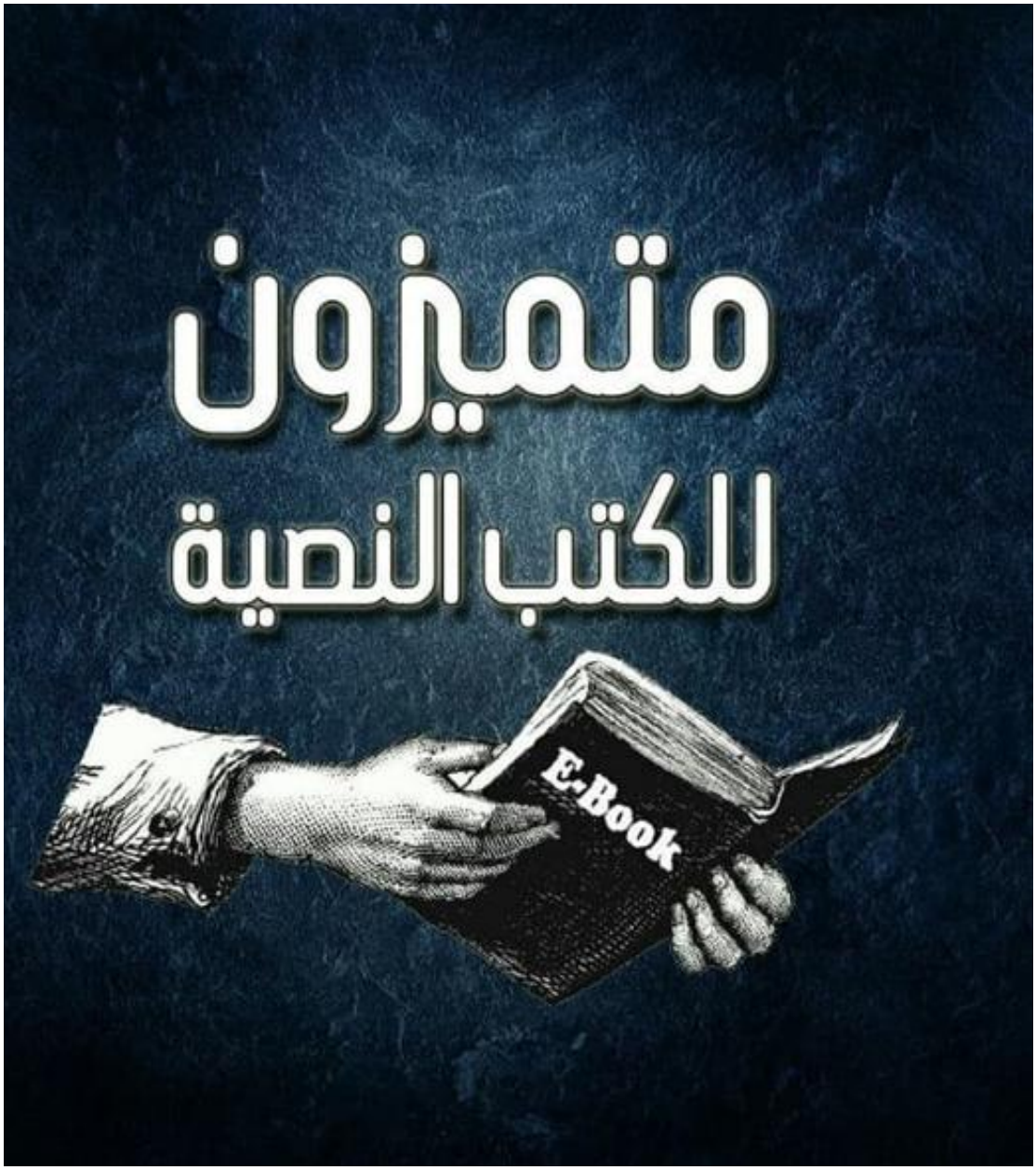
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

Notes

[←1]

هو كتاب كيت وايتلام «تلفيق إسرءيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني» الذي قمت بترجمته لدار قدمس بدمشق، عام 2000. وقد كانت هذه المادة مكتوبة بمثابة مقدمة للترجمة. ولكن إشكالاً حدث بين الناشر وبين سلسلة «عالم المعرفة» الكويتية، التي نشرت الكتاب قبل صدوره في دمشق. وثار جدل وصل إلى المحاكم حول أحقية النشر. ووجد الناشر (د. زياد منى) أن استكتاب المؤلف (وايتلام) نفسه تقديماً للترجمة العربية، ترجمتي، يقوي موقفه. وهذا ما حدث. وربما كان محقاً. ولكن ظلت هذه المقدمة-المقالة التي عملت على توسيعها وتطويرها حتى صارت كما تراها في هذا النص. ويجدر بنا التنويه هنا إلى أن كتابة «إسرءيل» بهذه الطريقة، (وباقتراح من د. زياد منى) كانت بهدف تمييزها عن إسرائيل، الكيان المعاصر، ولكي لا نضطر في كل مرة إلى كتابة «إسرائيل القديمة».